موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية

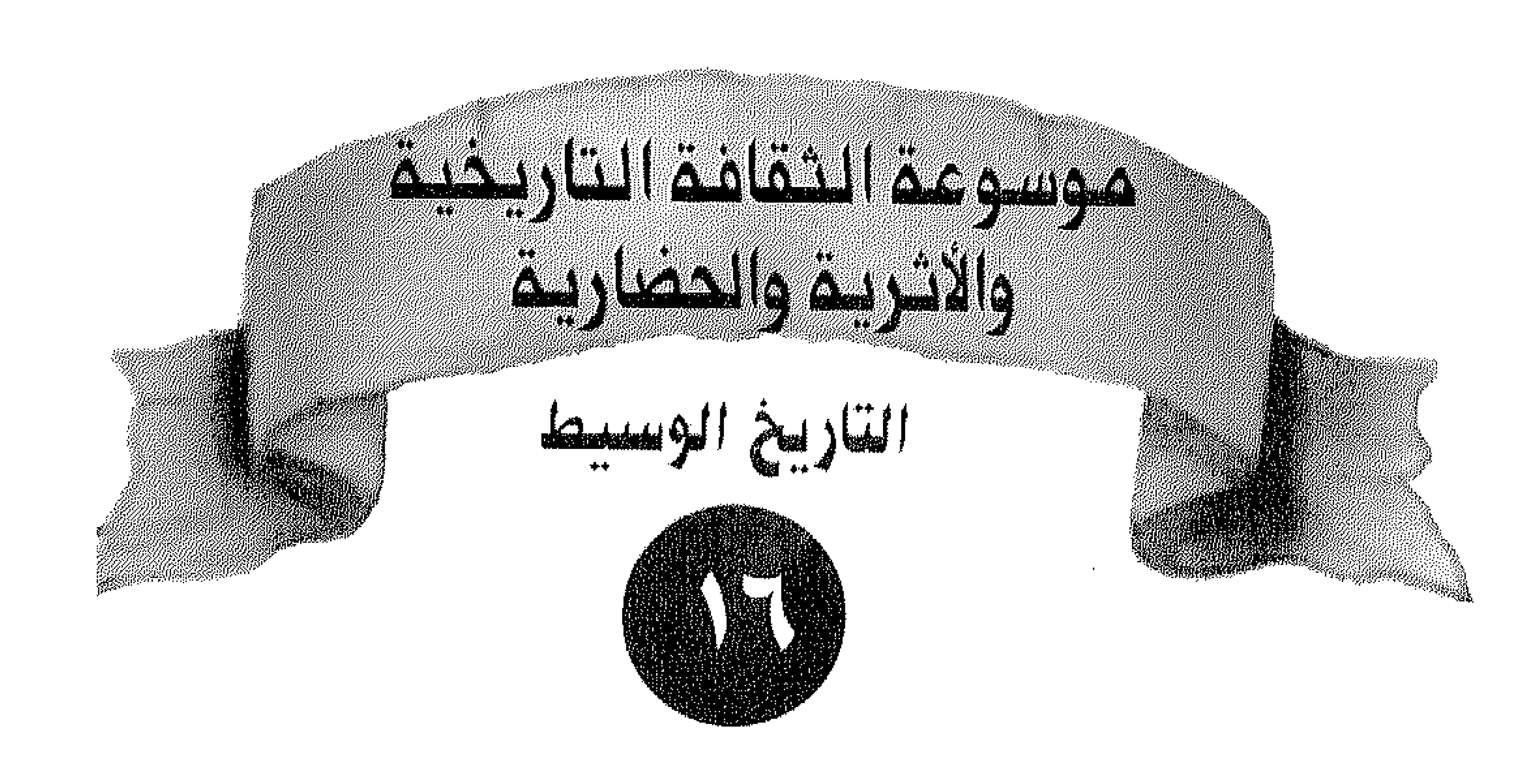


هارون الرشيد وشارلمان





أ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل



هارون الرشيد وشارلمان

تأليف
أ. د. ليلى عبد الجواد إسماعيل
كلية الآداب - جامعة القاهرة



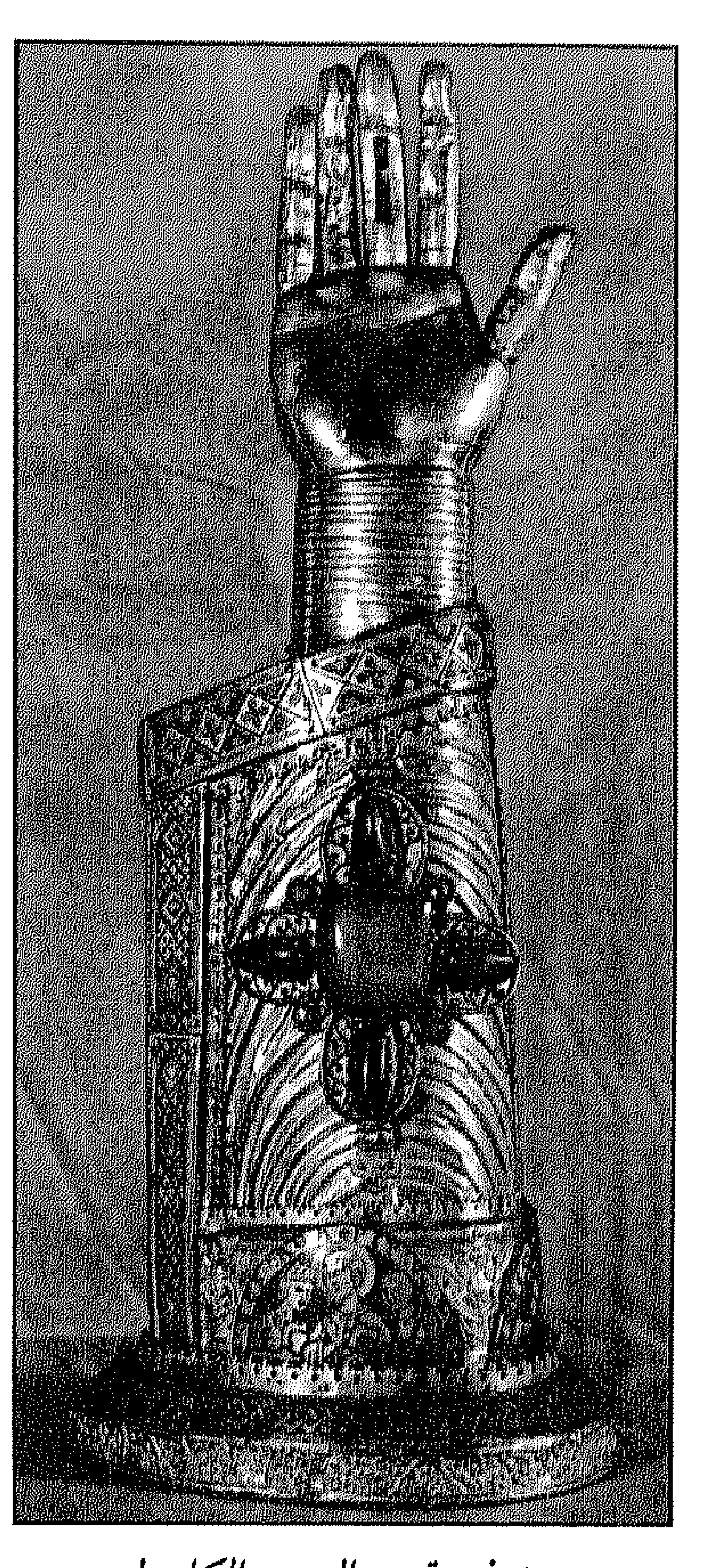
قصر الأخيضر - العصر العباسي سنة ١٧٢ هـ

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة



يد ذهبية من العصر الكارولنجى

٩٥٦,٠٥١
ل ى هـ ا

ليلى عبد الجواد إسماعيل.
هارون الرشيد وشارلمان/ تأليف ليلى عبد الجواد إسماعيل. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٦م.
أ-د ٧٢ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ١٦).
ببليوجرافية: ص ٦٩-٧٠ .
تدمك: X - ٢١٢٩ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - هارون الرشيد. ٢- شارلمان. أ- العنوان. ب-السلسلة.

رقم الإيداع: ٨٣٧٤ / ٢٠٠٦

دار الفكر العربى

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

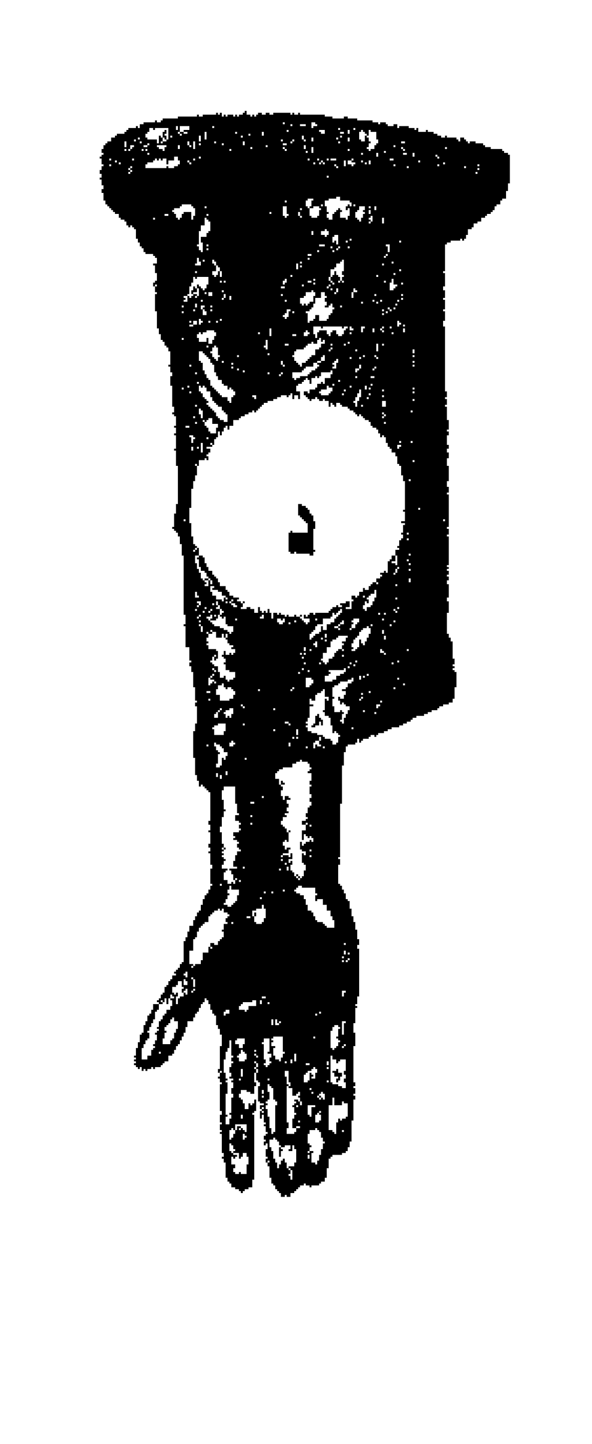
موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ – فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

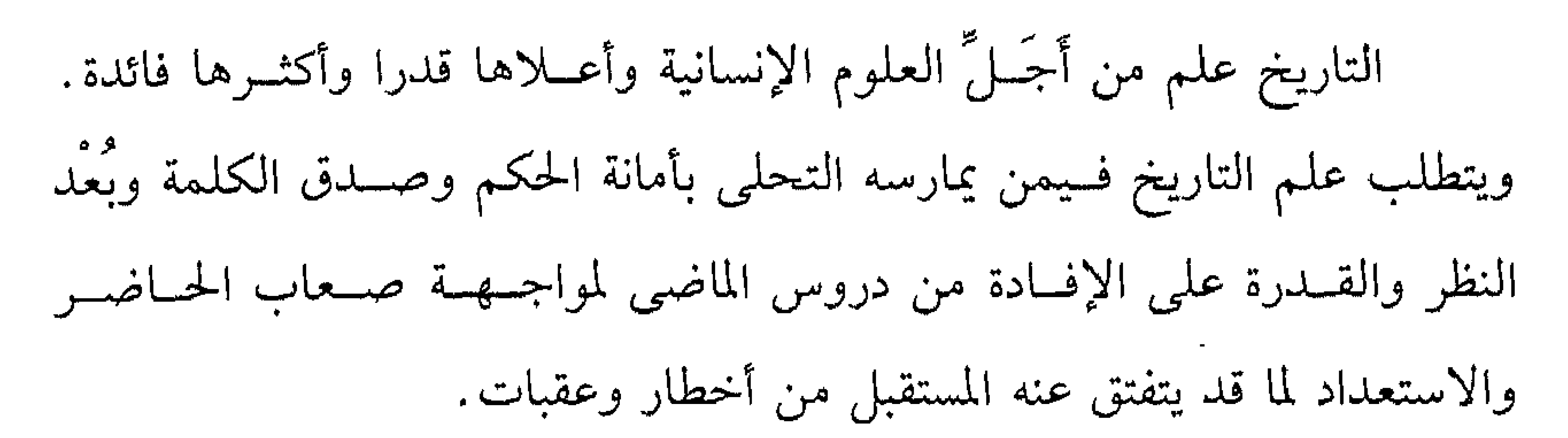
www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com





تقديم السلسلة



التاريخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعْد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

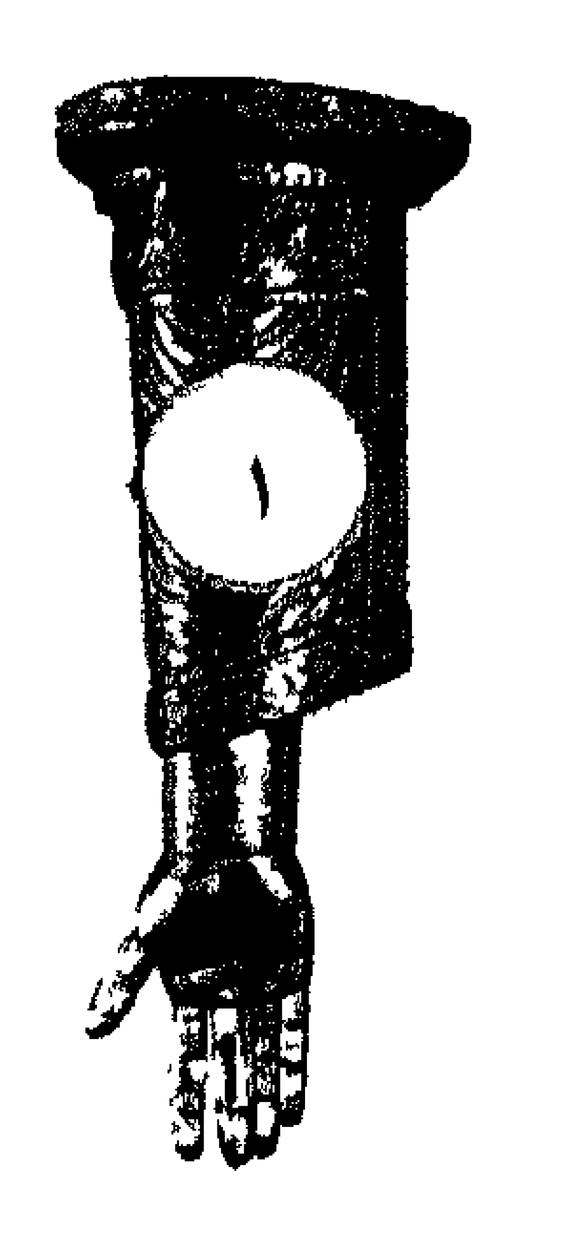
إن الروايات التاريخية قد تتشابه فى بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

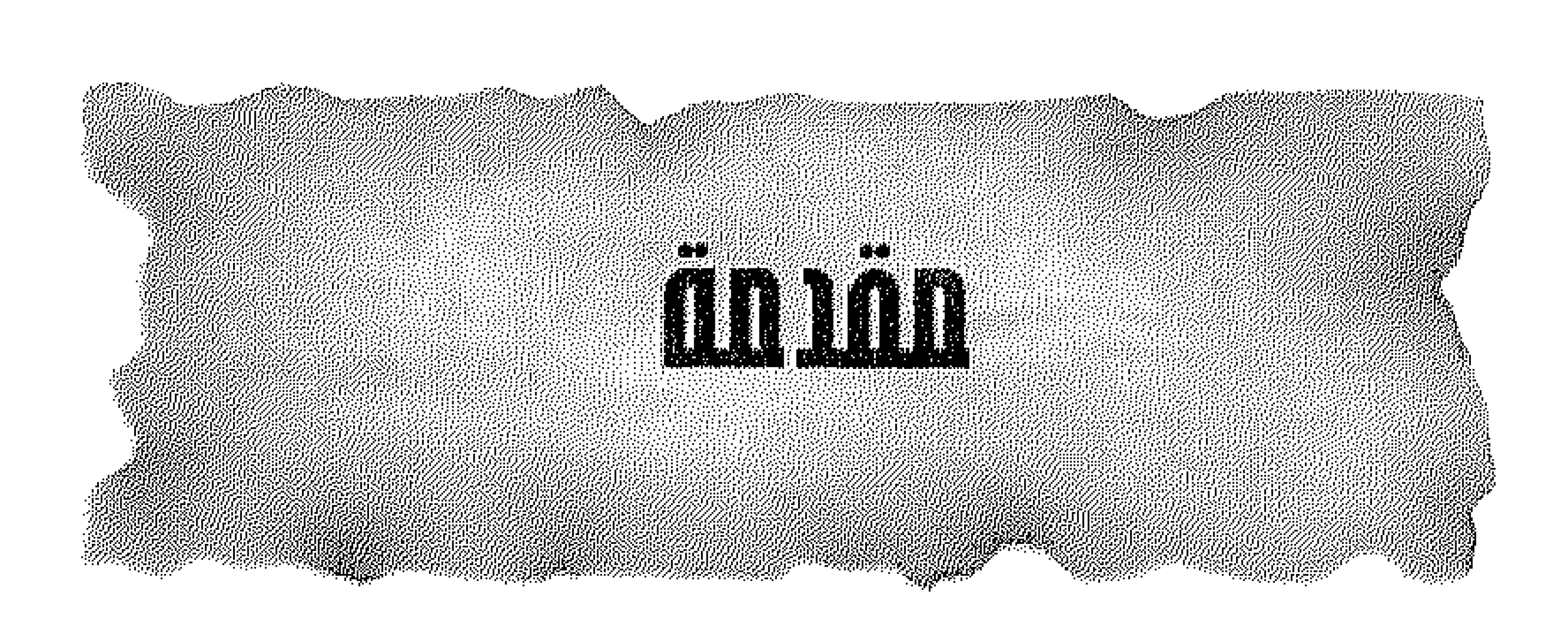
وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمْعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجال خدمة الثقافة العربية. والتى وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور



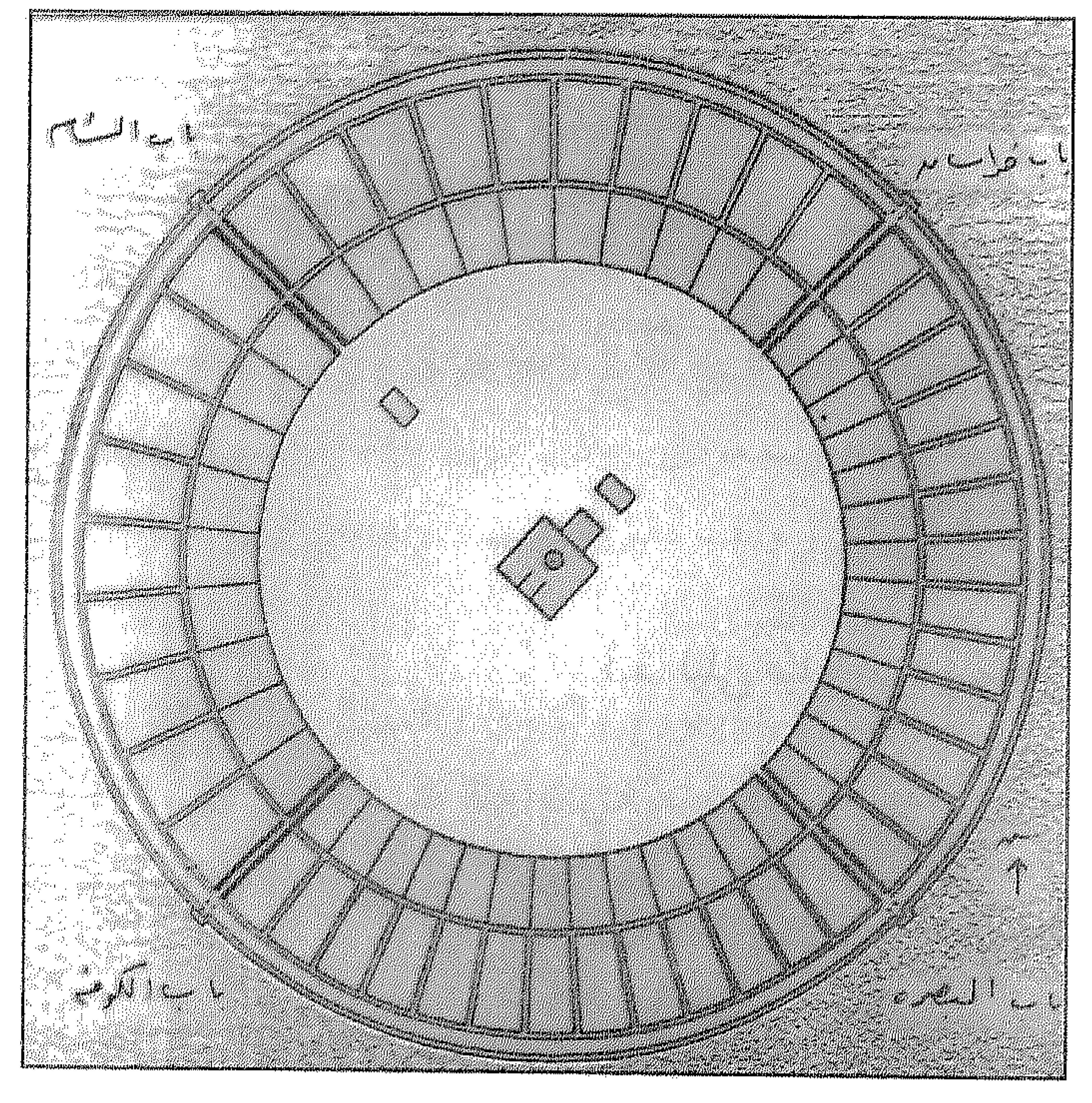


مقدمة

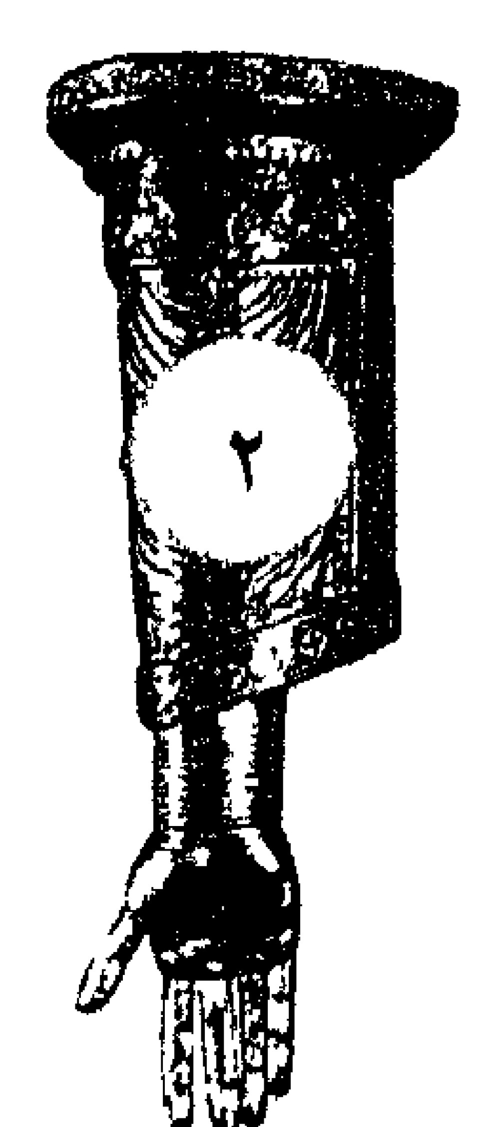
تقاسم الزعامة السياسية فى العالم فى مطلع القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى قطبان هما: هارون الرشيد خليفة الشرق وسيده بلا منازع، وشارلمان ملك الفرنجة وإمبراطور الغرب وسيده بلا منازع كذلك، فهارون الرشيد يعد من أعظم الخلفاء وأشهرهم قاطبة، حتى أن العامة والخاصة تردد اسمه باستمرار. ويعد شارلمان كذلك من أشهر الشخصيات التى قادت أوروبا الغربية وأعادت تنظيمها فى فترة من أهم فترات العصور الوسطى وأشدها اضطرابا.

وإذا كانت الدولة العباسية فى عهد هارون الرشيد قد بلغت ذروة مجدها وقوتها وبهائها حتى أصبحت أحسن الدول، وأكثرها خيرا، وأوسعها رقعة، مرهوبة الجانب ذائعة الصيت، حاول خصومها أن يأمنوا جانبها، وخطب أصدقاؤها ودها وحرصوا على صداقتها، فإن دولة الفرنجة فى عهد شارلمان قد اتسعت رقعتها كذلك، وأصبحت قطب المدنية فى العصور الوسطى فى الغرب، وأحيت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، ونشرت المسيحية بين السكسون وغيرهم، وحمت البابوية من إغارات أعدائها، كما حمت العقائد الأرثوذكسية من الهرطقات، كذلك حافظت على الحضارة الغربية وأحيتها من جديد.

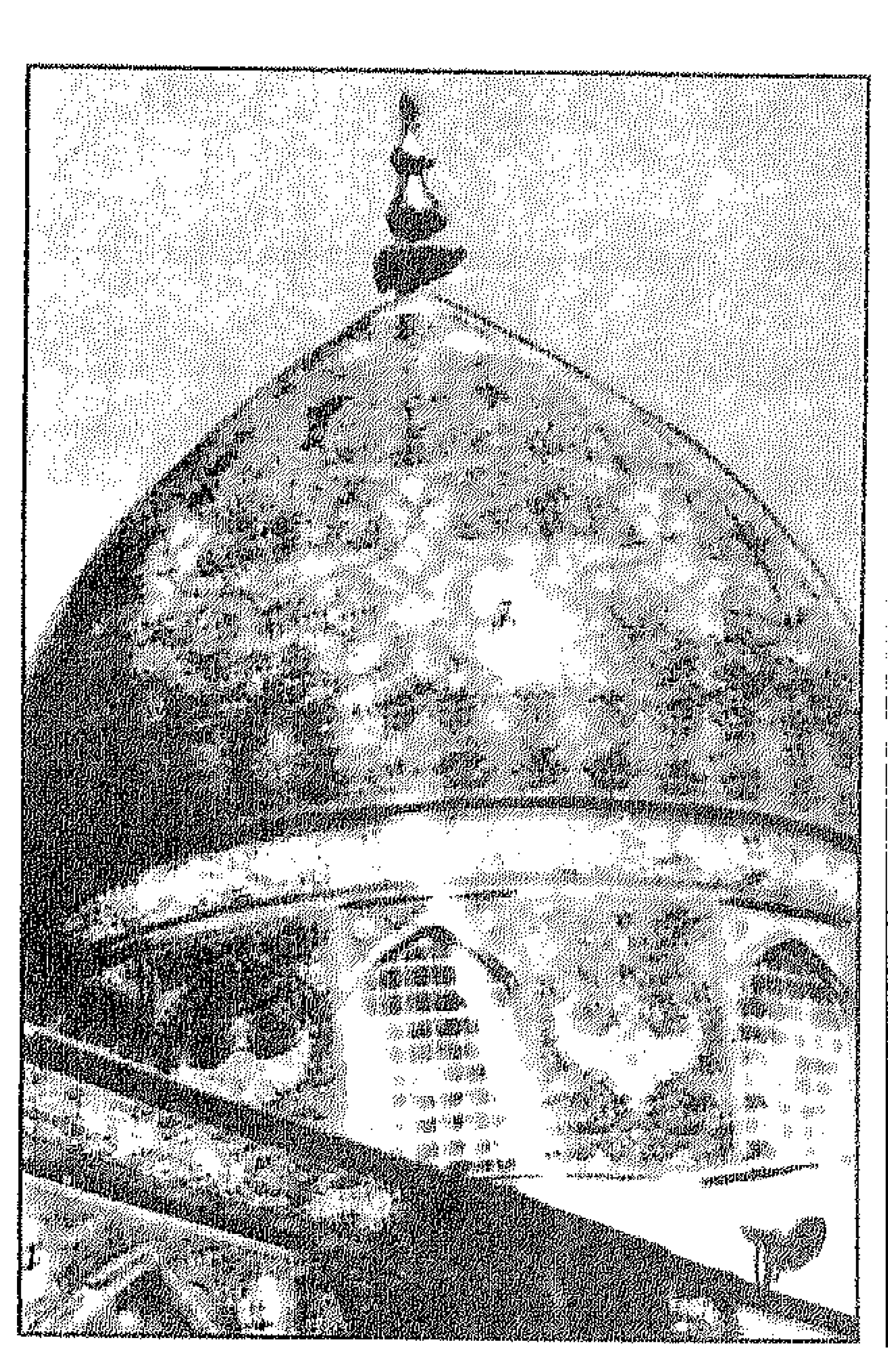
وإذا كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية قد بلغت فى عهد الرشيد ذروة الرخاء، وصارت من أهم مدن الشرق وذاع صيتها حتى طبق الآفاق، وأصبحت مركزا هاما فى التجارة العالمية وكعبة لرجال العلم والأدب، وأزهى مراكز الحضارة فى الشرق، فإن إكس لاشابل



تصميم مدينة بغداد العباسية



(آخن) عاصمة دولة الفرنجة قد غدت فى عهد شارلمان حاضرة العالم المسيحى، وقبلة تهوى إليها النفوس؛ نفوس الأباطرة والبابوات والسفراء والعلماء وطلاب العلم والشعراء وأصبحت مركزا لنهضة كبرى شملت كافة الميادين، حتى عُدَّت من العواصم الهامة التى عرفها العالم فى ذلك الحين وهى بغداد، والقسطنطينية وقرطبة.



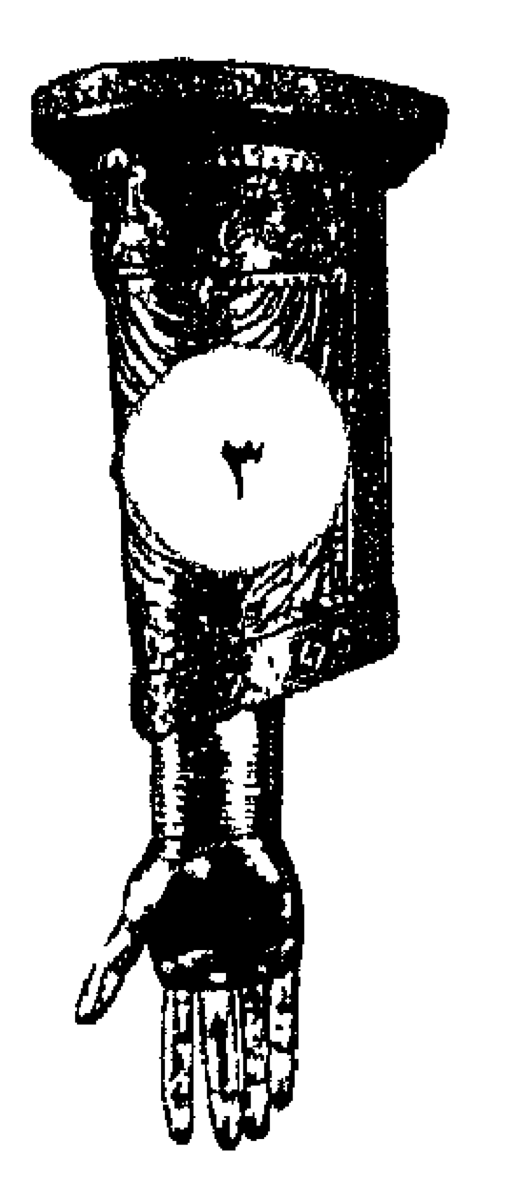
قبة المهدى - بغداد

وعلى هذا لم يكن التقارب بين القطبين هارون الرشيد وشارلمان بالأمر العسير، وسنلاحظ من خلال العرض التالى لحياة كلا الرجلين، أنهما بذلا أقصى ما وسعهما من جهد من أجل أن يعليا من مكانة بلديهما، ويرفعا من شأنهما، ويزيدا من تراثهما، ويجعلا اسمهما يتردد على كل الألسنة؛ ولذا لا عجب أن سطر التاريخ سيرتهما بأحرف من نور.

وهذه الدراسة المتواضعة تحاول إلقاء الضوء على حياة كل من هارون الرشيد وشارلمان، وصفات كل منهما ودراساته وثقافته وطعامه وشرابه وملابسه، وكذلك هواياتهما، مع التعرض للسياسة الداخلية والخارجية للدولة فى عهد كلا العاهلين الكبيرين. وأخيرا، الصلات التى ربطت الرجلين والسفارات المتبادلة بينهما والهدايا مع نتائج هذه السفارات والجدل الذى دار حولها.

والله ولى التوفيق،،

أ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل



الفصل الأول
هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٩م)

ولد هارون الرشيد بمدينة الري ـ على مقربة من طهران ـ في أواخر ذى الحجة عام ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، وأبوه هو الخليفة المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور، ثالث خلفاء بنى العباس، أما أمه فهى الخيزران الشهيرة.

وكان للمهدى ولدان الأكبر؛ وهو موسى الهادى، وقد وصفه المسعودى بقوله: «كان قاسى القلب، شرس الأخلاق، صعب المرام، كثير الأدب، محبا له، وكان شديدا شجاعا، جوادا».

والثانى هارون وقد لقبه أبوه (بالرشيد) شغفا به وإيثارا له.

وكان المهدى قد عزم قبل وفاته على أن يخلع ابنه الأكبر موسى الهادى من ولاية العهد ليكون ولى عهده المباشر هو هارون ـ الذى يفضله ويؤثره، غير أن وفاة المهدى المفاجئة حالت دون ذلك، وبويع موسى الهادى بالخلافة بعد وفاة أبيه فى ٧ من محرم سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م.

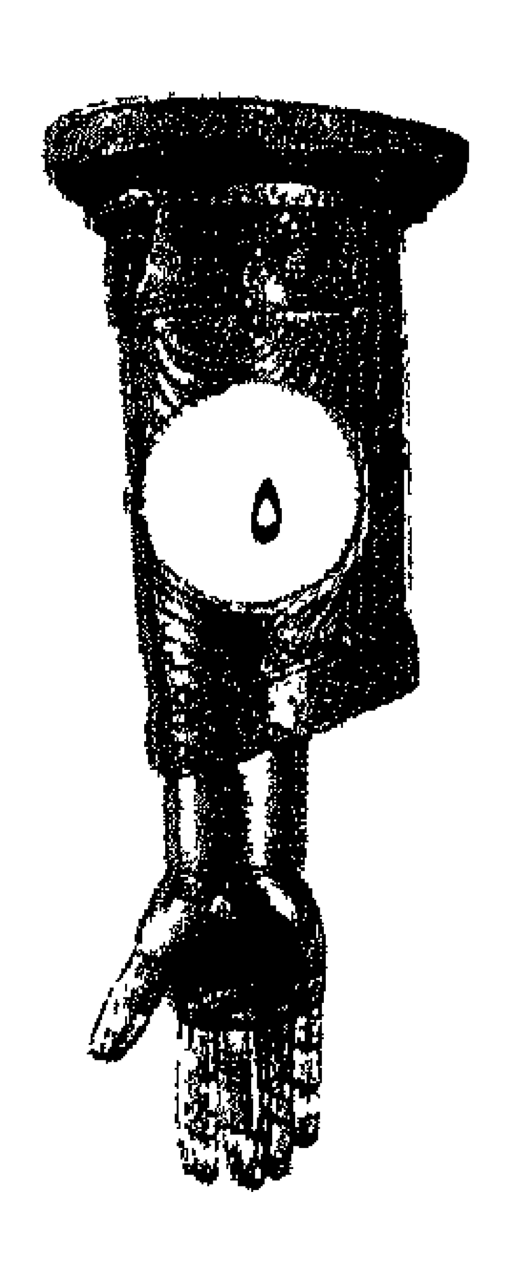
ولم تدم خلافة الهادى أكثر من عام وثلاثة أشهر، إذ ما لبث أن توفى فى منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠هـ/ ١٤ سبتمبر من عام ٧٨٦م فى ظروف غامضة، وبويع الرشيد بالخلافة فى نفس الليلة التى توفى فيها الهادى.

كان الرشيد حين بويع بالخلافة فتى فى عنفوانه، فكان ابن إحدى وعشرين سنة كما يذكر كل من الطبرى والمسعودى. وكان مديد القامة، عبل الجسم، غير بادن ولا نحيف، أبيض البشرة له عينان كبيرتان، وأنف دقيق مستقيم، وله لحية سوداء، كما كان فاحم الشعر، ومن أرق الخلفاء وجها كما يذكر الطبرى.

اتصف الرشيد بالورع والتقوى والتدين، فقد كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة تطوعا إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة كما تروى المصادر. وكان يحج سنة ويغزو سنة طول مدة خلافته إلا سنين قليلة، وحج ماشيا، ولم يحج خليفة ماشيا غيره فيذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٧٩هـ «أن الرشيد اعتمر فى هذه السنة فى شهر رمضان، فلما قضى عمرته، انصرف إلى المدينة، فأقام بها إلى وقت الحج، ثم حج بالناس، فمشى من مكة إلى منى، ثم إلى عرفات، وشهد المشاهد والمشاعر ماشيا، ثم انصرف إلى طريق البصرة».



هارون الرشيد



كان هارون الرشيد إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج هو ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة.

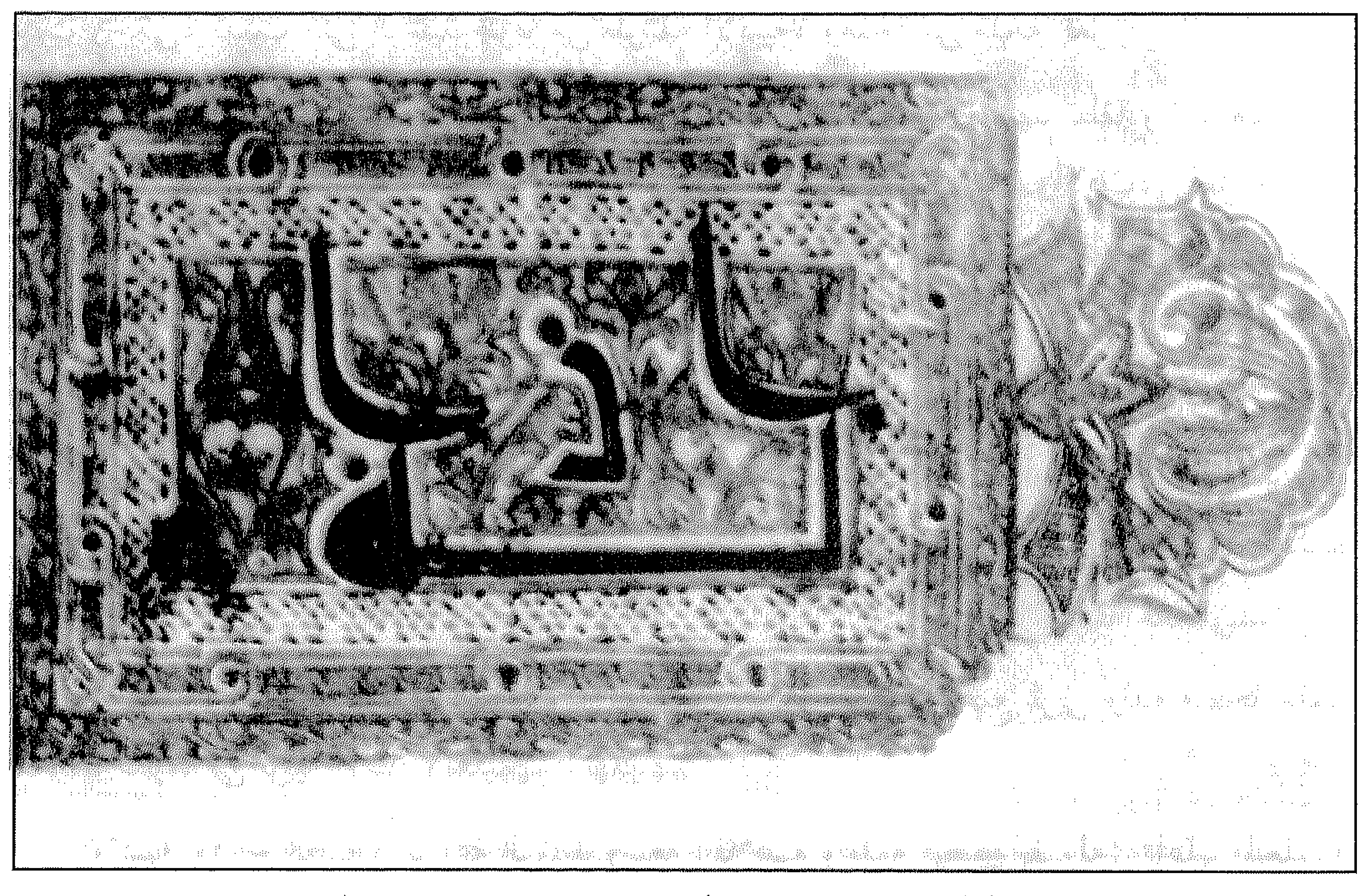
وبلغ عدد المرات التى حج فيها الرشيد تسع مرات خلال سنوات حكمه الذى دام ثلاثة وعشرين عاما.

ونظرا لأن الرشيد أكثر الناس حجا وغزوا، فقد قال فيه الشاعر أبو السعلى:

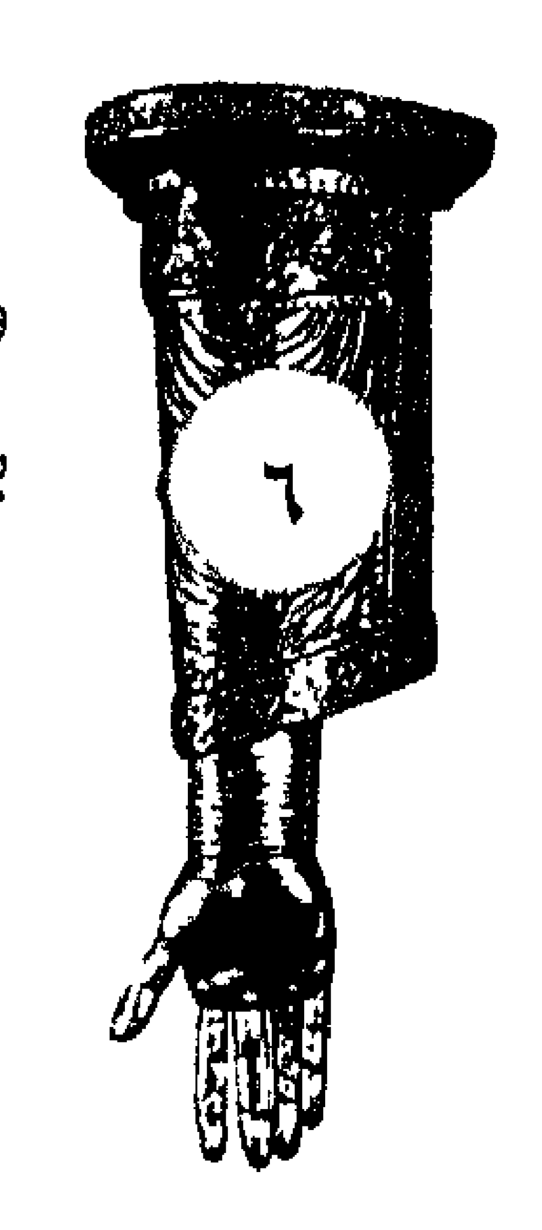
فمن يطلب لقاءك أو يُرده　　　فبالحرمين أو أقصى الثغور

اتصف الرشيد أيضا بأنه من أخشع الخلفاء قلبا، وأغزرهم دمعا عند الموعظة الحسنة، كما كان غزير الدمع عند الذكر.

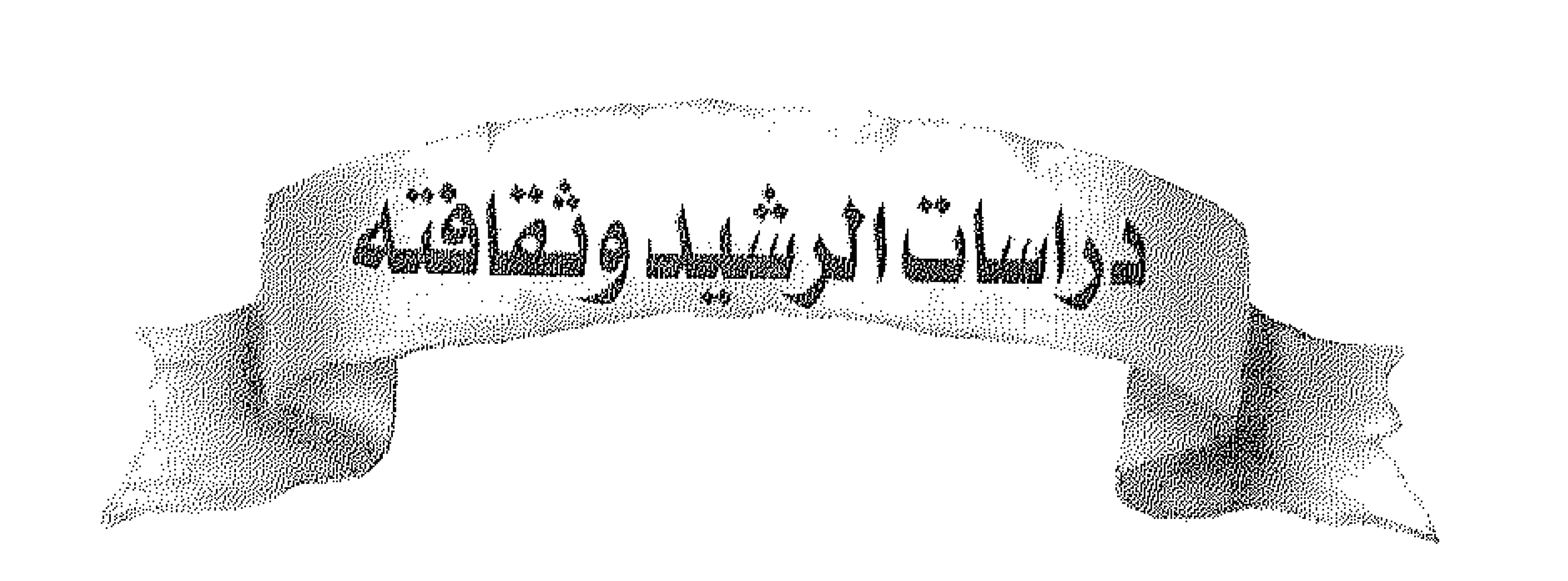
واتصف كذلك بالكرم والجود وكثرة الصدقات، فيروى أنه كان يتصدق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم، ويروى كذلك أنه أمر بألفى ألف يتصدق بها فى جانبى بغداد الغربى والشرقى، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة. كذلك كان كثير الصدقات على أهل الحرمين؛ فيذكر الطبرى «أنه حج فى عام ١٧٠ هـ، وأعطى أهل الحرمين عطاء كثيرا، وقسم فيهم مالا جليلا». كذلك يروى «أنه أمر بألفى ألف تصرف إلى فقراء الحرمين فى كل حرم ألف ألف صدقة».



صفحة من الرق من مصحف ق ٢/٣هـ موجود حاليا بمتحف ڤيينا



ومع ما اتصف به هارون من ورع وتقوى وتدين، كان يحب الدعابة والظرف، فيسمع النادرة فيهش لها، وتصنع أمامه النكتة فيضحك منها، وله فى بلاطه من ظرفاء عصرهم وأشهرهم «ابن أبى مريم».



دراسات الرشيد وثقافته

درس الرشيد على أيدى أساتذة عرفوا بالورع والتقوى، أمثال: على بن حمزة الكسائى - أحد شيوخ القراءات السبع، وإمام أئمة الكوفة فى اللغة والنحو والأخبار. وقد عنى الكسائى بتدريسه وتلقينه العلم فى طفولته، وبقى بجانبه حتى نشأ، وصار الكسائى من جلسائه وعلماء بلاطه، ولم يفارق الرشيد حتى توفى هو عام ١٨٩هـ/ ٨٠٤م.

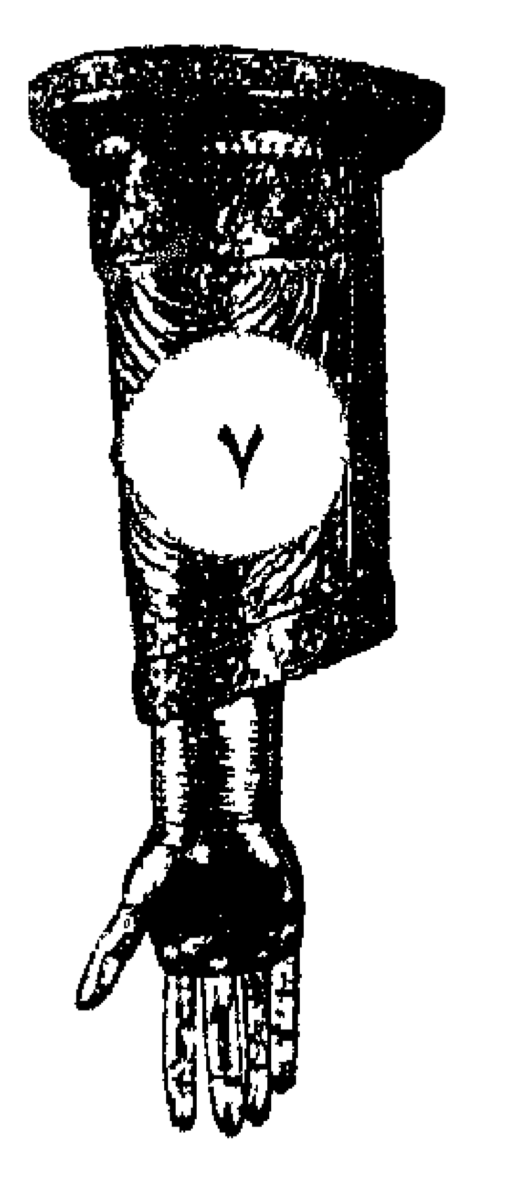
ومن أساتذة الرشيد أيضا المفضل بن محمد الضبى، وهو من شيوخ الأدب والأخبار وأيام العرب، وقد علم الرشيد الأدب ولكنه لم يلازمه ملازمة الكسائى ولم يدرك خلافته، كذلك لازم الرشيد الأصمعى (عبد الملك بن قريب) صاحب النوادر والأخبار وطرائف الأعراب، وأعذب من تحدث وحكى، لذلك ملئ الرشيد طرفا من طرائفه الأدبية، وملحا من ملحه العربية.

كان الرشيد مثقفا ثقافة واسعة، ومن أبلغ الناس كلاما، وأحسنهم نطقا وأكثرهم علما وفهما، وتدلنا مناقشاته الكثيرة للعلماء والأدباء على بحر واسع من العلم والأدب، ولعل ما يدل على ثقافته وبراعته فى اللغة تلك الوصية المشهورة التى تقدم بها إلى الأحمر النحوى - معلم ولده محمد الأمين، وكان ما جاء فيها:

«إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، أقرئه القرآن، وعرفه الآثار، ورِّوه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره مواقع الكلام.. وأمنعه الضحك إلا فى أوقاته... ولا تمعن فى مسامحته فيستجلى الفراغ ويألفه، وقَوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة».

يتضح من مطالعة هذه الوصية بلاغة الرشيد وحكمته؛ فقد وضع لمربى ولده منهجا علميا صحيحا سليما فى تربية الأبناء وتعليمهم وتهذيبهم.

ويشهد مؤرخ إيطالى ببراعة الرشيد وسعة اطلاعه وعلمه فيصفه بقوله: «أعلم المتعلمين وأكرمهم بين الخلفاء».



وكان الرشيد يقدر سلامة اللغة حق قدرها، ويدقق فيما لم يفهمه، كما كان دقيق الفهم للغة العربية، تلقى فيها العديد من الدروس، وكان محببا له أن يجالس النحاة ويستمع إلى جدلهم».

كان الرشيد يتذوق الأدب ويحب الشعر والشعراء، حفظ الكثير من الأشعار والأمـثال والحكم وأقـوال البلغاء والفـصحـاء وخطبـهم مما وسع ملكته الأدبيـة، وشجعه على مـجالسة العلماء والفقهاء والشعـراء وأصحاب الأدب، ويجمع رواة الأدب على أن الرشيـد خلق ليكون أديبا شـاعرا، فقـد كان بليغ العبـارة، جزيل اللفظ، دقيقا فى تعـبيره، عشق الشعر منذ صبـاه، وبلغ من حبه للشعر مبلغا عظيـما حتى أصبح غذاء روحيا له يسمعه فى جميع أحواله فى مرضه وفى صحته، فى قصره وفى موكبه، فى مجلسه وغزوه وجهاده، أثناء طعامه وشرابه.

وكان الرشيد جزيل العطاء للشعراء؛ فعلى سبيل المثال منح الرشيد مروان بن أبى حفصة فى سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧ م بعد أن أنشده شعرا أعجبه خمـسة آلاف دينار، وكساه خلعة، وأمر له بعشرة من رقيق الروم. وهناك أمثلة عديدة فى هذا الصدد.

كذلك كان الرشيد ينقد الشعراء فى أشعارهم ويحصى مزاياهم وأخطاءهم ومن أشعاره وهو يحتضر:

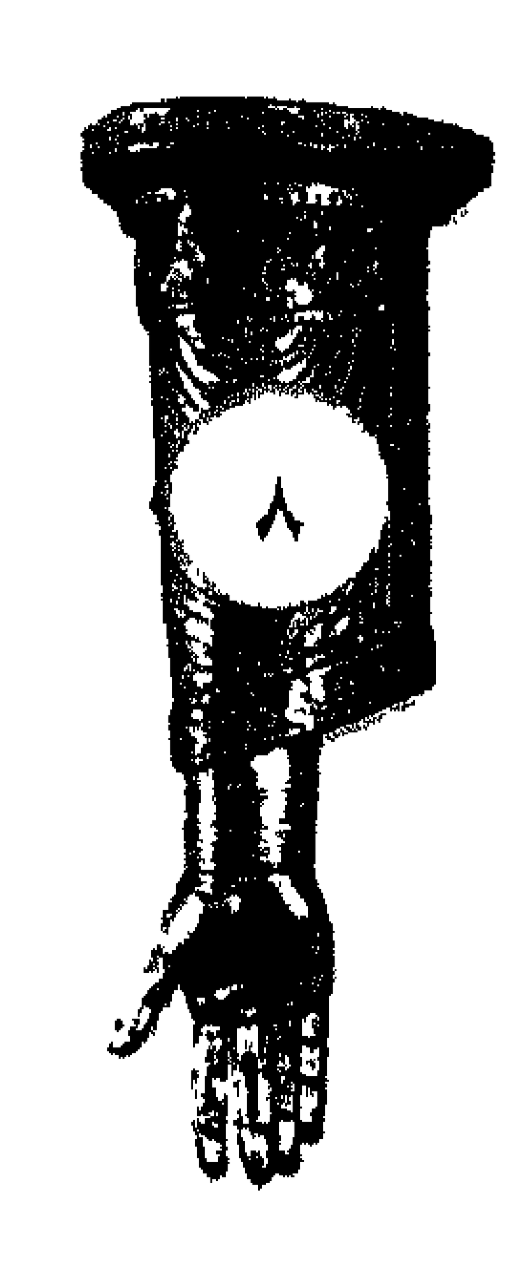
إنى بطــوس مقيــم   مالى بطوس حميم

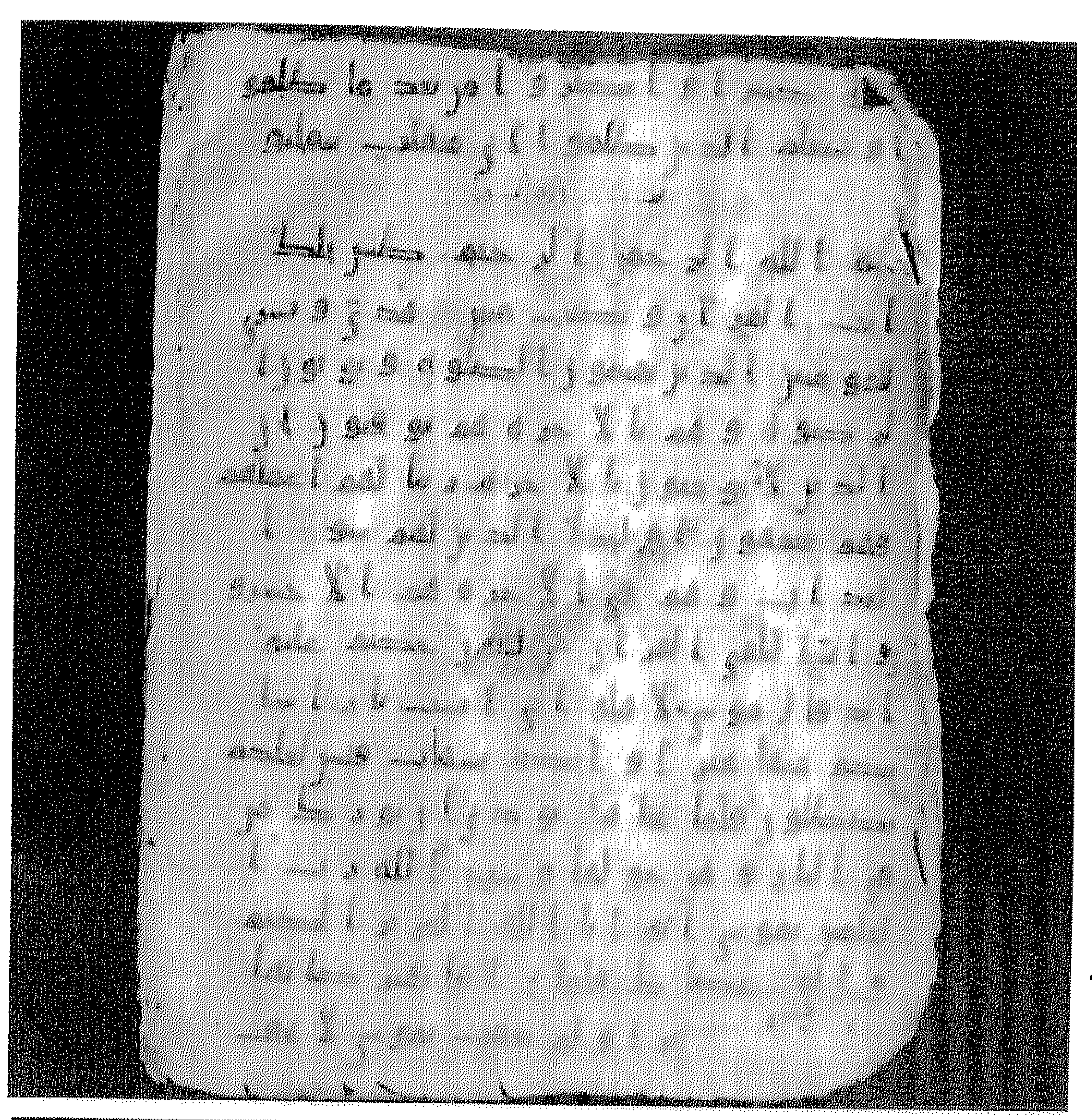
أرجــو إلــهى لما بى   فإنه بى رحـــــيـم

لقد أتى بى طوســا   قضـــاؤه المحتوم

وليـــس إلا رضائى   والصـــبر والتسليم

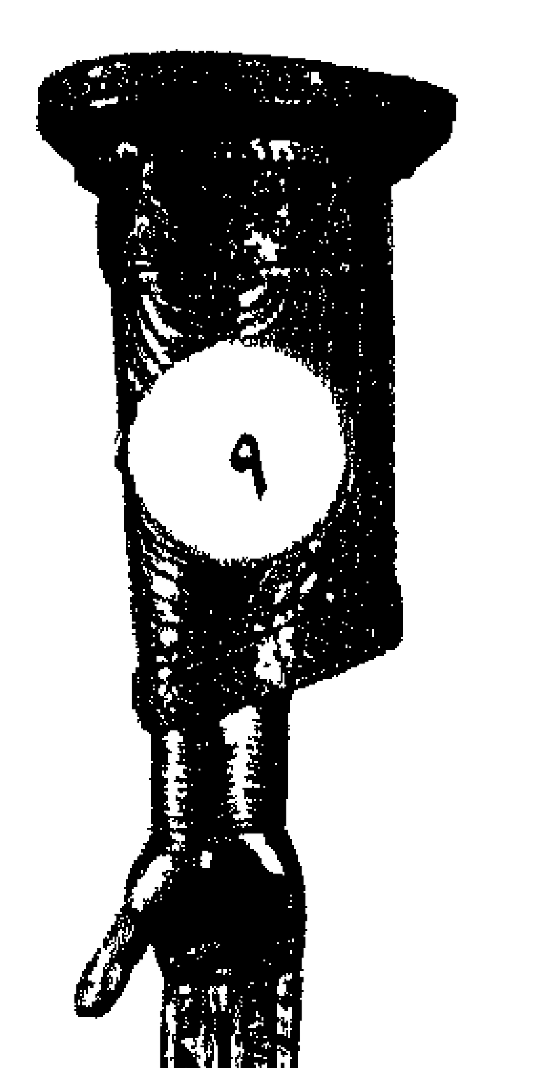
وامتاز الرشيــد فى فن الخطابة وعرف بالفصاحة فى اللهجة، وحـسن الإلقاء، وكان الغالب على أسلوبه لغة القرآن الكريم.





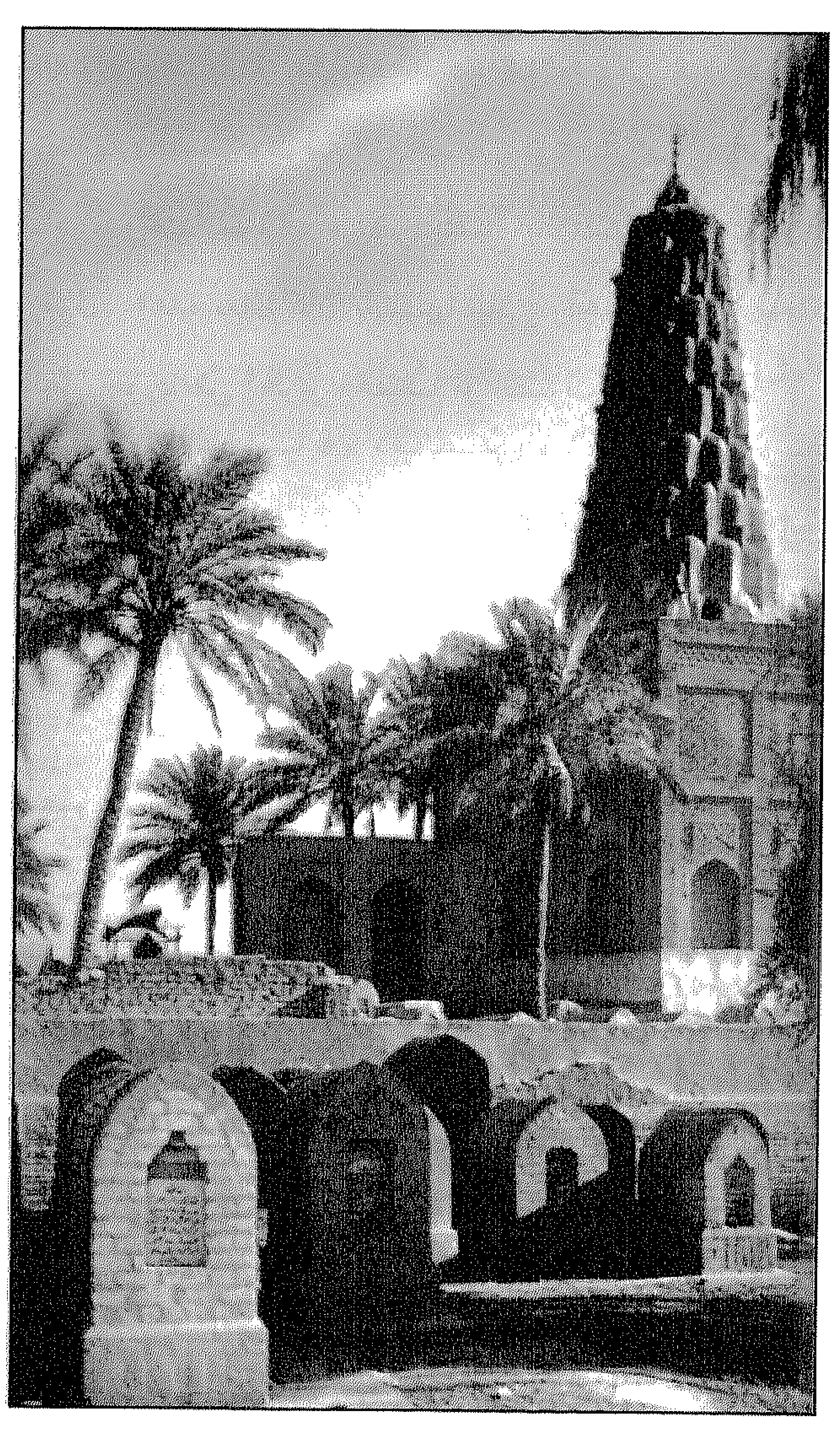
صفحة رق من مصحف
بالخط الكوفى فى عهد
هارون الرشيد ق ٢/ ٣ هـ

الكاظمية دفن بها الإمام موسى بن جعفر الكاظم سنة ١٨٣ هـ فى عهد هارون الرشيد لتكون نواة للمدينة



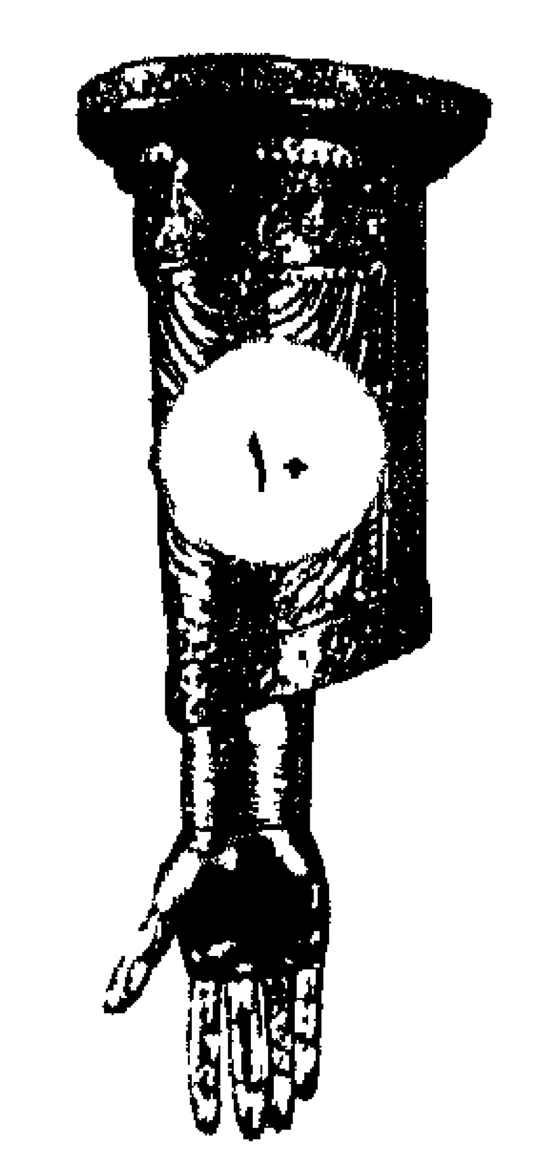
طعام الرشيد وشرابه ولباسه

لم يكن الرشيد أكولا، ولا نهما فى طعامه، ولكنه كان ذواقا للجيد منه، مكتفيا بالقليل، وكان قليلا ما يجلس للطعام وحده، فإن لم يكن أحد من أهل بيته، دعا بمن كان فى بابه من جلسائه وخواصه وحاشيته ليأكلوا معه، وكان يستمع أثناء الطعام لقصيدة جيدة أو رواية ظريفة أو شيئا من الطرف الأدبية.



ضريح السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد - بغداد

أما فيما يتعلق بالشراب فكان يفضل استعمال عصير الثمار فى شرابه مع الماء البارد، وقد اتهم الرشيد بالإسراف فى شرب الخمر، ولكن هل يعقل أن رجلا اتصف بالورع والتقوى والتدين، غزير الدمع عند الذكر يشرب الخمر وهو يعلم أنها من الكبائر، وكان معروفا عنه عند بطانته وأهل مائدته اجتناب الخمر كما يذكر ابن خلدون، ولقد ثبت عنه أنه حبس أبا نواس لما بلغه من انهماكه فى المعاقرة حتى تاب وأقلع!



ويوضح ابن خلدون هذه المسألة فيذكر «إنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها... فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة».

أما عن لباس الرشيد، فقد كان له ألبسة كثيرة يتزيا بها فى مختلف المناسبات، أما عن لباسه العادى فكان عمامة على رأسه، ويلبس قميصا من القطن الأبيض الناعم الملمس على جسمه، وعليه رداء من الحرير المطرز حول الصدر والعنق، وقد يضع بدل هذا الرداء «بدنة» وهى من أغلى الثياب التى تنسج خصيصا له، وتكون أكمامها والصدر والرقبة من خيوط ملونة بألوان زاهية منقوشة، وفوق ذلك جبة سوداء من القماش النادر، وتحتها سروال عريض يتصل بالقدمين. ويحتذى الرشيد فى رجليه نعالا من الطراز العربى ويقول: «هذه نعال كان يلبسها آبائى وأجدادى» ولا يحاكى الفرس فى لباسهم، وكان يلبس مع النعل جوربا من الحرير الخفيف أو الصوف اللين.



تزوج الرشيد عدة مرات، وكانت أولى زوجاته هى زبيدة ابنة عمه جعفر بن أبى جعفر المنصور، تزوجها فى عام ١٦٥هـ/ ٧٨١م فى حياة أبيه المهدى، وأنجبت له محمد الأمين، ثم تزوج أمة العزيز، فولدت له على بن الرشيد، وتزوج أيضا من أم محمد بنت صالح المسكين، ومن العباسة ابنة عمه سليمان بن أبى جعفر سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م. وتزوج كذلك من عزيزة بنت الغطريف وهى بنت خاله أخى أمه الخيزران، وأخيرا تزوج من ابنة عبد الله محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العثمانية، ويقال لها الجُرشية؛ لأنها ولدت بجرش باليمن. وتوفى الرشيد عن أربع هن زبيدة، وعباسة، وابنة صالح، والعثمانية. ورزق الرشيد بعدد كبير من الأبناء والبنات، حرص على تربيتهم وحسن رعايتهم وتعليمهم ويتضح ذلك من خلال الوصية التى أوصى بها الأحمر النحوى معلم ولده الأمين.

كان الرشيد أشد الناس غيرة على نسائه ونساء أسرته من المهائر، وكان خاصته يعرفون ذلك، فيتحاشون كل ما يمس هذا الجانب من عاطفته.

١١



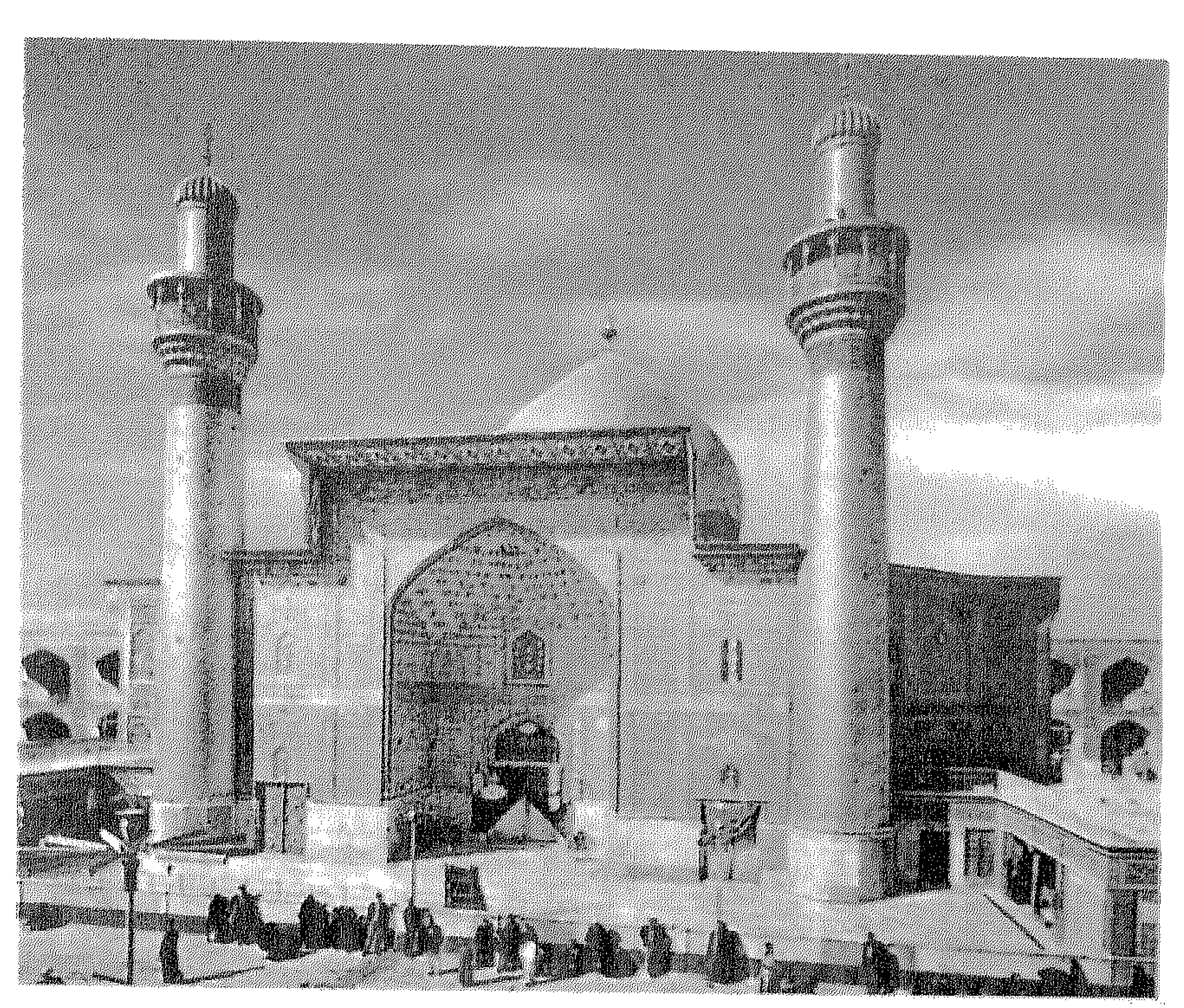
كان الرشيد يمـارس الرياضة على اختلاف أنواعها وبخـاصة ركوب الخيل، فقد تعـلم ركوبها منذ صغـره، كما تعلم أصول الرمى بالسـهام والطعن بالرمح، والضرب بالسيف على يد نوابغ الفرسان الذين كانوا يقومون بتدريب أبناء الأمراء والقواد.

وكان يقيم سـباقات للخيل، ويخصص لها الجـوائز الضخمة، ويحضرها بنفـسه، ويشرف على العناية بخيله عدد كبير من أمهر المتخـصصين وفى مقدمتهم (ذفافة العنسى) ويدعى «صاحب خيل هارون».

كان الرشيد كما يذكر المسعودى «أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان، ورمى بالنشاب فى البرجاس (وهو هدف خشبى بارتفاع الفرس)، ولعب الأكرة والطبطاب، وقرب الحاذق فى ذلك». وكان هارون الرشيـد يلعب الصولجان على الخيل مع وزرائه وقـواده وخاصته، وجعل لهـا ميادين خاصة، تحيطها مقاعد مريحة لجلوس المتفرجين.

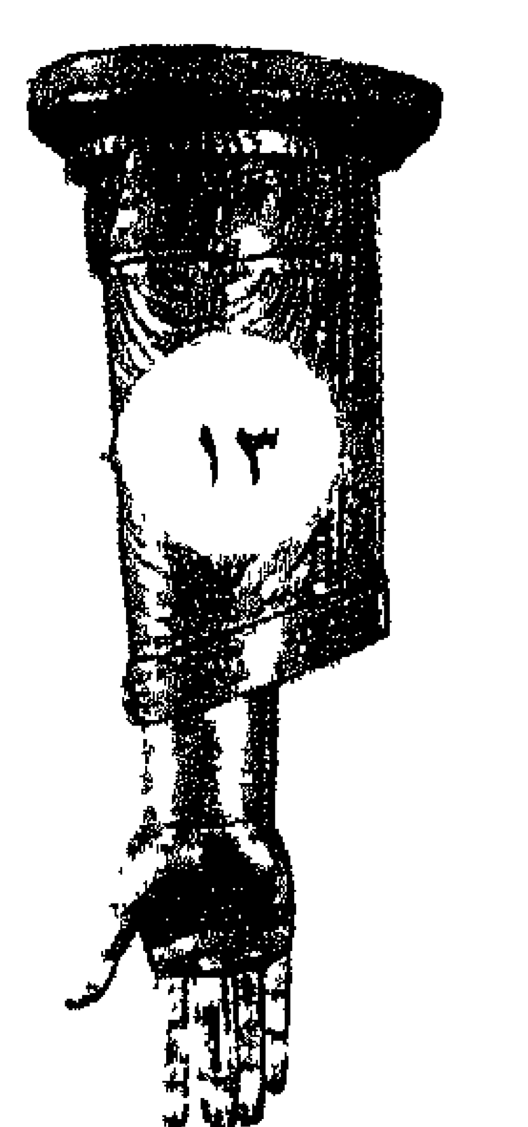
ومن هوايات هارون الرشيد أيضا لعب الشطرنج، وفى هذا الصدد يذكر المسعودى «كان (أى الرشيـد) أول من لعب الشطرنج من خلفاء بنى العبـاس، وبالنرد، وقدم اللُّعَّاب، وأجـرى عليهم الرُزق» وكثيرا ما كان هارون الرشيـد يلعب الشطرنج مع إبراهيم بن المهدى - الذى كان يرافقه فى رحلاته ومجالسـه ومنادماته، وكان الرشيد يقرب له اللاعبـين المجيدين فى الشطرنج، ويجزل لهم العطاء، كما كان يصـادق الحاذقين فى لعبه ومن أمثلهم الشـاعر أبو نواس، الذى عرف عنه إجادة الشطرنج مثل إجادة قرض الشعر، وكذلك محمد البيذق، واسمه مشتق من إحدى قطع الشطرنج، وقد سمى بذلك لقصر قامته كقصر قطعة البيذق (أى العسكرى).

وكان الرشيد يهوى كذلك ركوب الحراقات «السفن المزينة» فى نهر دجلة والفرات، كما كان يعشق الصيد على أنواعه.



ضريح الإمام على بن أبى طالب الذى أمر ببنائه هارون الرشيد، وكان عبارة عن قبة من الطين الأحمر ـ بعد أن تأكد من وجود رُفاته أثناء رحلة صيد

رسم هارون يلعب الشطرنج



السياسة الداخلية

نظام الحكم والإدارة في عهد الرشيد

أظهر الرشيد مهارة وبراعة فائقة فى إدارة شئون البلاد، فكان أول عمل قام به بعد مبايعته بالخلافة هو دعوة يحيى بن خالد البرمكى مربيه ومؤدبه -الذى صان له ولاية العهد، وتحمل الكثير من آجله - وعينه وزيرا له، وفى ذلك يذكر المسعودى وقال له: «يا أبت أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببـركتك ويمنك، وحسن تدبيرك، وقـد قلدتك الأمر»، وفى ذلك يذكر الموصلى:

ألم تر أن الشـمس كانت سقيمة ... فلما ولى هارون أشـرق نورها

بيمن أمين الله هارون ذى الندى ... فهــارون واليها ويحيى وزيرها

وإذا كان هارون الرشيد قد عهد بالوزارة إلى يحيى بن خالد فإنه رسم له الطريق التى يسير عليها، فيـروى الطبرى أنه قال له: «قد قلدتك أمر الرعية، وأخـرجته من عنقى إليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، وأعزل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى».

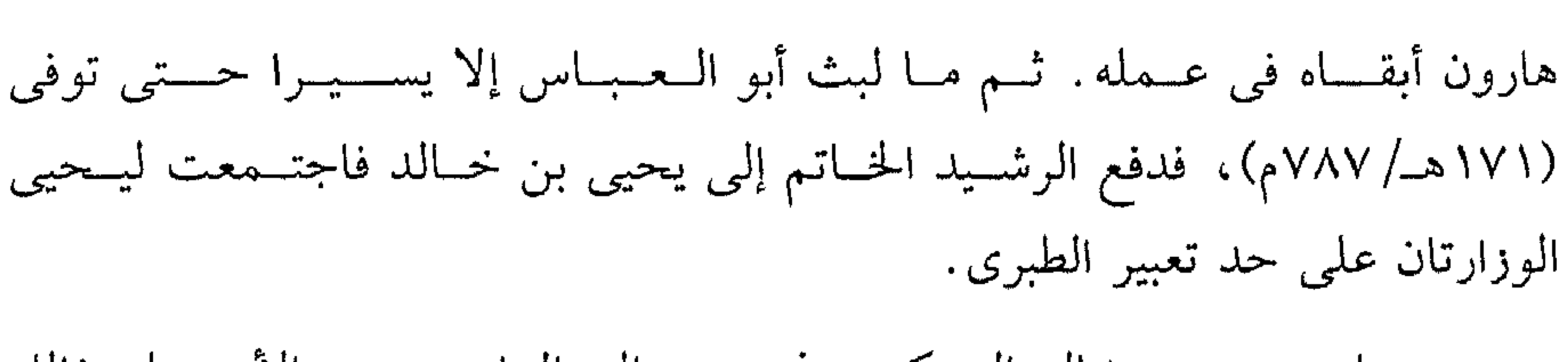
امتازت دولة الرشيد بتوزيع الأعمـال الإدارية من خلال مجموعة من الدواوين ومنها ديوان الرسائل وديوان الخـراج والجند والبريد والمظالم والشـرطة وغيرها.. وقـد آلت الدواوين كلها إلى يحيى بن خالد البرمكـى مع الوزارة فيما عدا ديوان الخاتم، فإنه كـان إلى أبى العباس (الفضل بن سليمان الطوسى) وهو رجل من خلصاء بلاط بنى العباس، وقد أكسبته الأيام خبرة الرجال، وكان قد شغل هذا المنصب منذ عـهد أبى جعفر المنصور، وكذلك فى عـهد المهدى والهادى، ولما تولى



درهم ضرب واسط سنة ١٧٢ هـ - عهد هارون



دينار باسم الأمين ابن أمير المؤمنين سنة ١٨٣ هـ



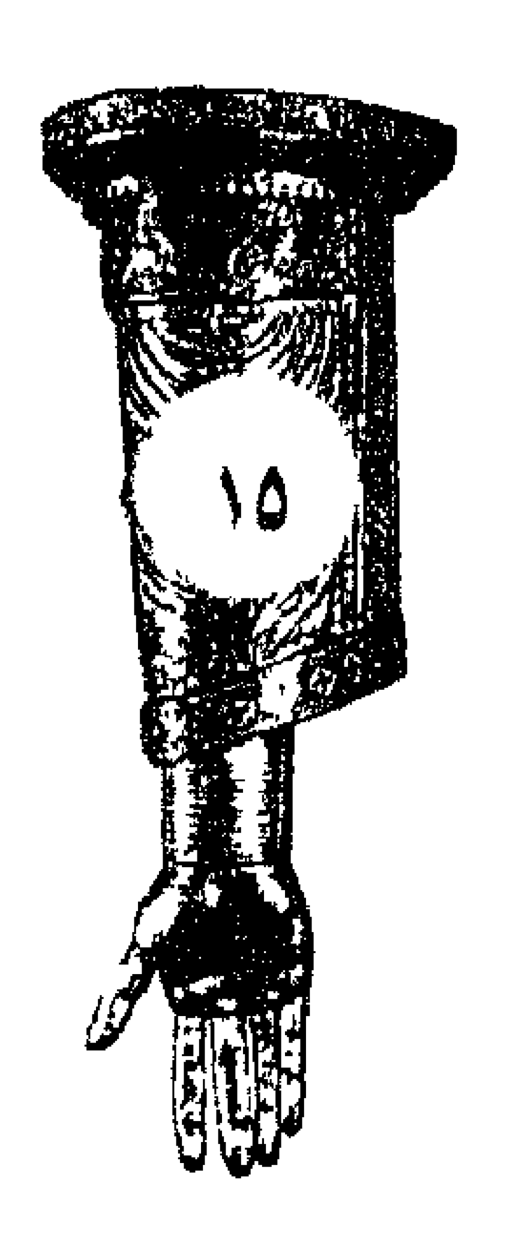
هارون أبقاه فى عمله. ثم ما لبث أبو العباس إلا يسيرا حتى توفى (١٧١هـ/ ٧٨٧م)، فدفع الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد فاجتمعت ليحيى الوزارتان على حد تعبير الطبرى.

وسار يحيى بن خالد البرمكى منذ عهد إليه الرشيد بتدبير الأمر على نظام العدل والرفق والإحسان للناس، وكان ساعده فى ذلك أخاه وابناه الفضل وجعفر، فقد ولى الرشيد محمد بن خالد أخو يحيى حجابته عام ١٧٢هـ/ ٧٨٨م ليدبر شئون مجالسه ويحضر اجتماعاته فيها مع الزائرين؛ وكانت مهمته على درجة كبيرة من الخطورة لأنه يطلع على معظم أسرار الخليفة الشخصية، ولأنه وجه الخليفة أمام الناس، ورئيس موظفى بلاطه. وولى الرشيد كذلك الفضل بن يحيى كور الجبال وطبرستان وأرمينية وأذربيجان فى عام ١٧٦هـ/ ٧٩٢م، ثم ولاه فى العام التالى على خراسان إلى جانب الرى وسجستان، وبذلك آل إليه المشرق. أما جعفر بن يحيى فقد تولى البريد، ودور الضرب والطراز ثم تولى المغرب كله، وبذلك اجتمعت السلطة فى أيدى البرامكة.

ظل البرامكة يدبرون شئون الدولة زهاء سبعة عشر عاما أحسن تدبير وأكمله، ونجمهم دائم التألق، ونفوذهم دائم التمكن، والدولة تتمتع فى ظلهم بعوامل السكينة والاستقرار، والشعب فى يسر ورغد، حتى أمسوا كالنجوم زاهرة، والبحور زاخرة، والسيول دافعة. ولكن سرعان ما انقلب عليهم الرشيد، وأوقع بهم فى سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م وقضى عليهم قضاء مبرما، وقد اختلفت الآراء فى أسباب ذلك.

أما عن سياسة هارون الرشيد تجاه الأمصار والولايات التابعة لدولته فكانت تستهدف تقلص نفوذ الولاة، وتحديد اختصاصاتهم، وعدم إطالة مدة عملهم خاصة فى الأمصار البعيدة حتى أنه كان يولى على مصر ـ على سبيل المثال ـ أميرا فى كل عام تقريبا، وكان إذا شك فى أحدهم أو فى أحد من ذوى النفوذ والشكيمة لا يتركه ليتفاقم أمره ويعظم شأنه، ولكن كان يقطع الطريق عليه عملا بالقاعدة التى تقول: «المنع أسلم عاقبة من القمع». ومن ثم فقد كان الرشيد شديد الرقابة على هؤلاء الولاة؛ لأنه يرى أنهم عيونه ويديه عند الرعية، كما حرص على أن يتولى تعيين الولاة بنفسه، بعد استشارة وزيره المفوض وربما ترك له أمر التعيين فى بعض الأحايين.

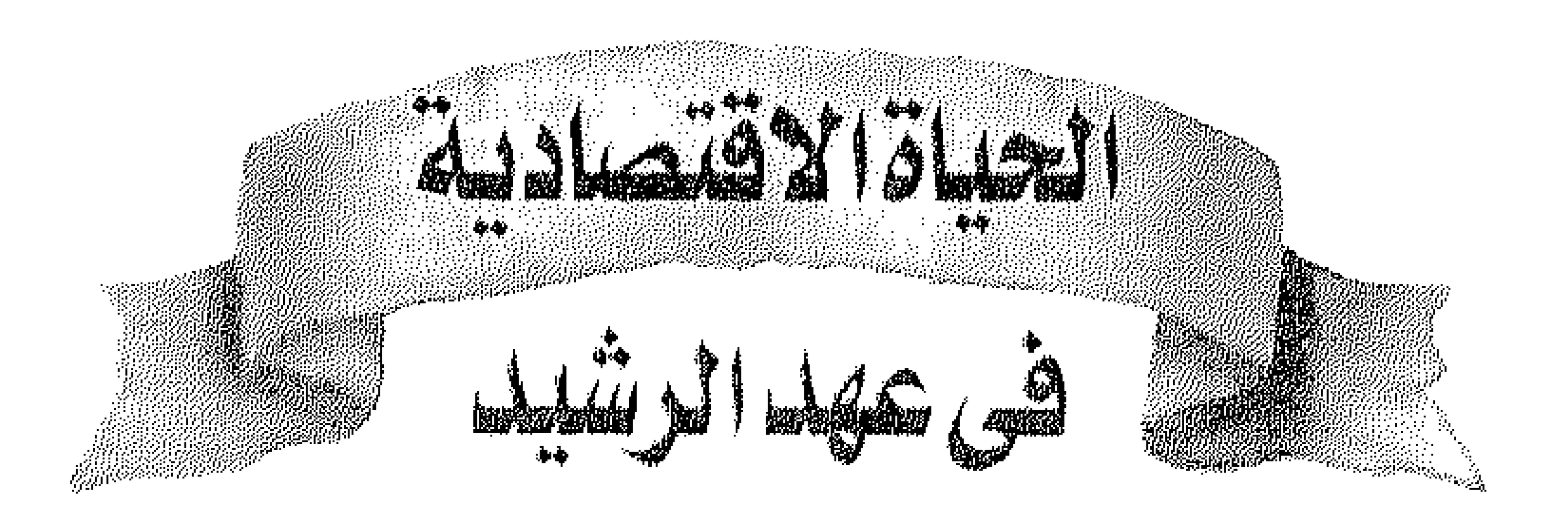
عمل الرشيد على تسهيل الاتصال بين حاضرة الخلافة وبين الولايات والأمصار التابعة لها، ومن أجل ذلك عنى عناية فائقة بتنظيم البريد، فهو شبكة من المراقبة لشئون الرعية، تصل أطراف الدولة وولاياتها بالعاصمة، وتخبر الخليفة عن كل صغيرة وكبيرة تحدث فى الولايات، فهو ينقل أخبار الأقاليم إليه بالتفصيل، ويتجسس له على حركات العمال وتصرفاتهم، وعلى أعدائه وراء



الحدود، فينذره عند حدوث الخطر. ومن أجل ذلك اهتم الرشيد بتمهيد الطرق، وإقامة المحطات على طول الطريق، وعنى بالحمام الزاجل لأجل الأخبار الخطيرة وضمان وصولها فى سرعة، كما هيأ وسائل النقل السريعة كالنوق والبعال والخيول القوية.

شهد عصر الرشيد العديد من الحركات المناوئة، ومنها حركة قامت فى خراسان، ولكنه تمكن من القضاء عليها، كذلك آرقت بلاد الشام مضاجع الرشيد، وذلك بسبب النزاع القبلى القديم بين النزارية واليمنية، ولكن تمكن جعفر ابن يحيى من وضع حد لهذا النزاع، مستخدما سلاح الخطابة، فكان ناجعا بتارا، أغنى فى مواطن كثيرة، لم يكن الحسام أو السيف يفيد فيها كثيرا.

وخرج على الرشيد أيضا الثائر العلوى إدريس بن الحسن، ونجح فى الوصول إلى المغرب، وأقام دولة هناك، وهى أول دولة علوية شيعية، عرفت باسم الأدارسة فى المغرب الأقصى. ورأى الرشيد أن خير ما يصنع لكى يطمئن على أملاكه فى أفريقية حتى لا يغير عليها الأدارسة العلويون فى المغرب أو الأمويون فى الأندلس، أن يعطى تونس استقلالا ذاتيا، على أن تحكمها الأسرة الأغلبية باسم أمير المؤمنين، ومن أجل ذلك أعطى ولايتها لإبراهيم بن الأغلب الذى ينسب إليه الأغالبة (١٨٤هـ/ ٨٠٠م) وجاء استقرار الأغالبة فى تونس محققا لأغراض الرشيد، فقد صدوا عنه الأدارسة وقاتلوهم وثبتوا لهم، بل وتطلعوا بأسطولهم إلى شمال البحر المتوسط وأغاروا على إيطاليا، واستولوا على جزيرة صقلية ومالطة وبعض جزر البحر المتوسط.

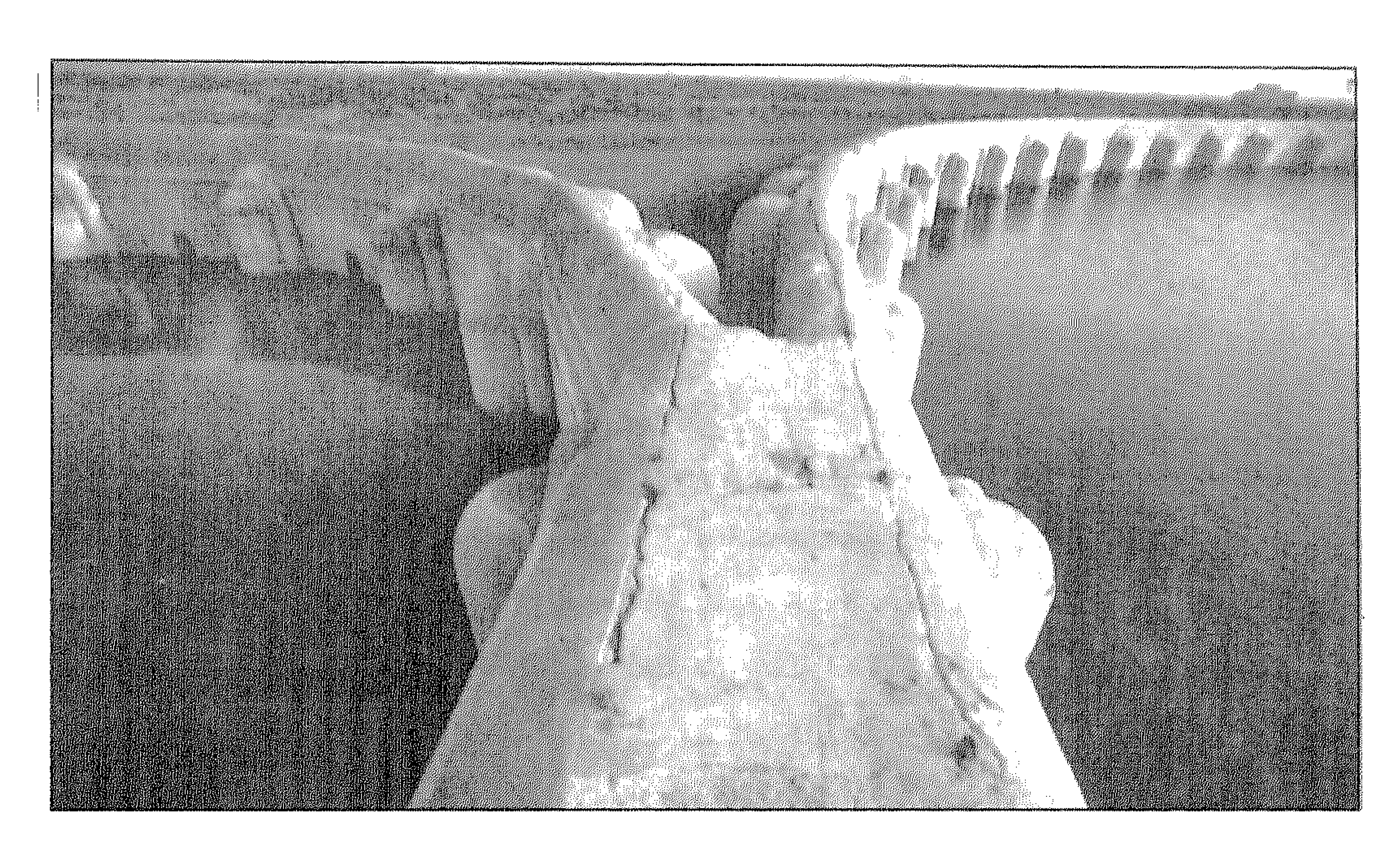


الحياة الاقتصادية فى عهد الرشيد

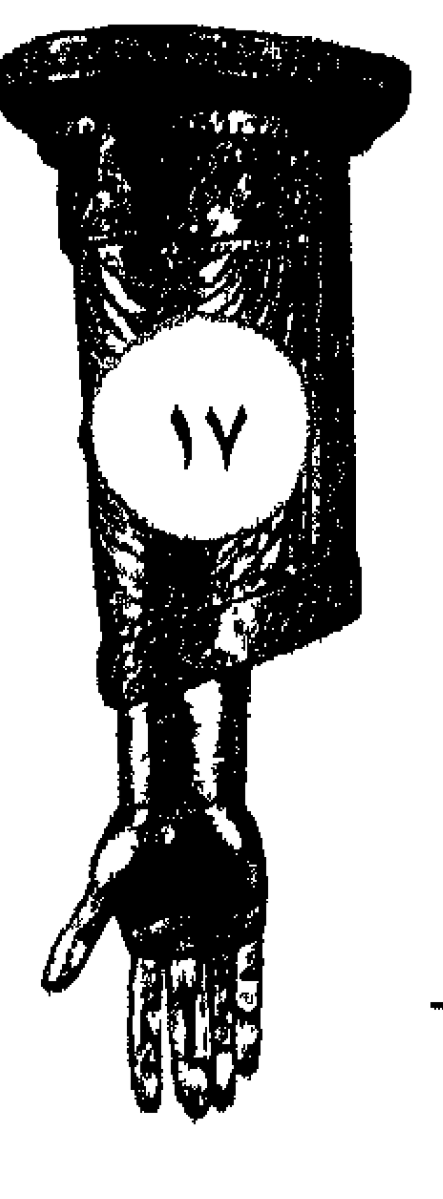
انتعشت الحياة الاقتصادية فى عهد هارون الرشيد؛ وذلك لأنه وجه عنايته نحو الزراعة واهتمت حكومته بمشروعات الرى، فبنت الجسور والقناطر، وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار حتى أصبحت بلاد الرافدين شبكة من المياه تعتمد عليها الحقول والمزارع والبساتين، كذلك عنيت حكومة الرشيد بشئون الفلاحين ومطالبهم، وخففت عنهم الضرائب، وجعل الرشيد الضرائب تدفع بنظام المقاسمة أى من نوع الغلة المزروعة إذا كانت قابلة للتخزين أو تدفع نقدا. وليس أدل على اهتمام الرشيد بنظام الضرائب من أنه طلب من أبى يوسف - قاضى بغداد - أن يؤلف له كتابا ينظم به سياسة الدولة الاقتصادية، فألف له كتاب «الخراج»، وفيه حدد الضرائب وكيفية جبايتها. كذلك قوله للسحابة: «أمطرى أنَّى شئت فسوف يأتينى خراجك».

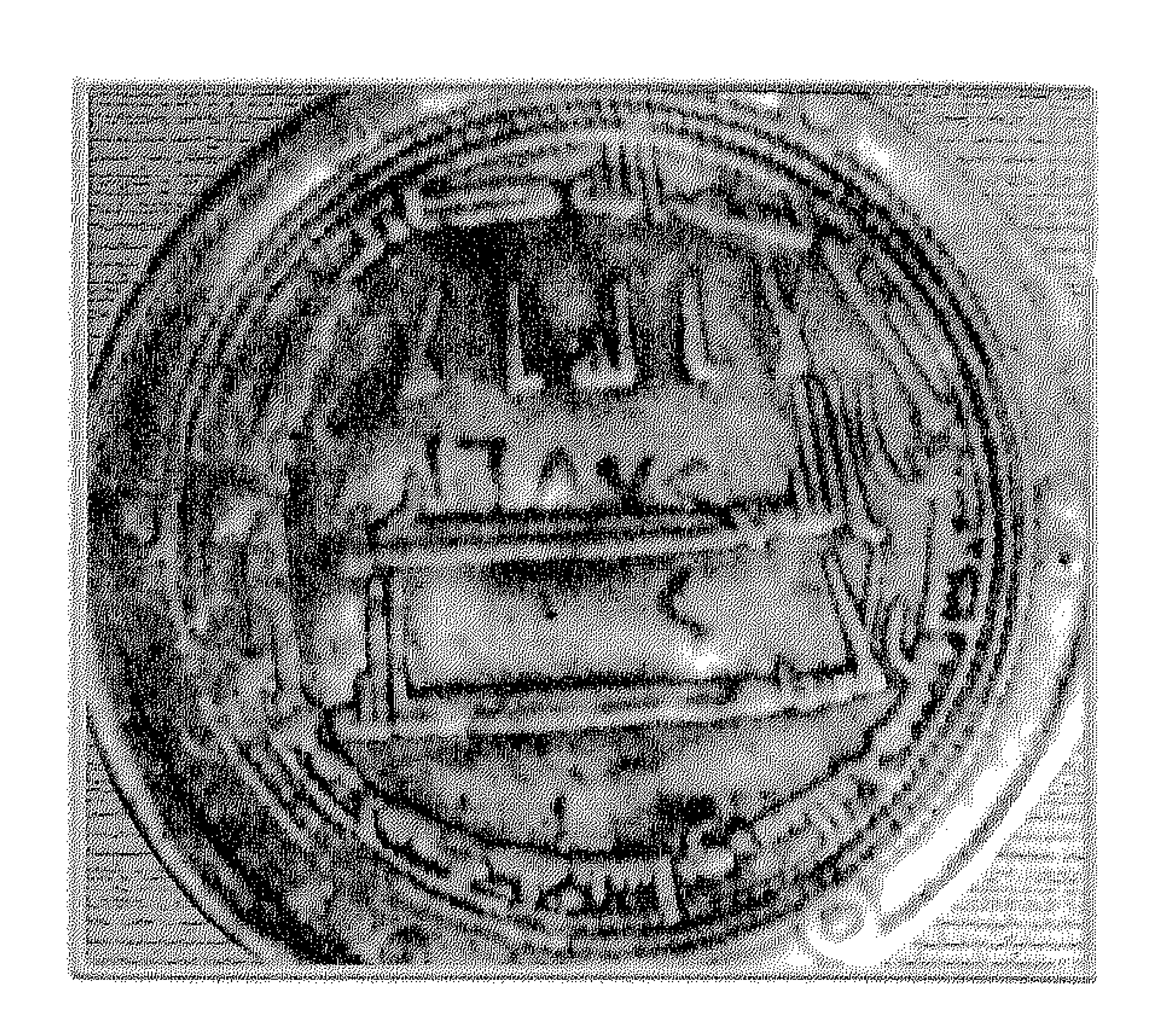
اعتنى الرشيد كـذلك بتشجيع الصناعات المتنوعة فى الأقاليم المخـتلفة، كما اتسع نطاق التجارة فى عـهده اتساعا كبيـرا بفضل امتداد الطرق وتمهيـدها وجعلها صالحـة لسير القـوافل، وتأمينهـا وتوفير الأمن فـيها وقطع دابـر اللصوص وقطاع الطرق، وكانت معظم الطرق تمر ببغداد حاضرة الخـلافة؛ لذلك حمل التجار إليها سلعهم من كل مكان، وعمـرت أسواقها بمختلف أنواع السلع نتيجـة لنشاط حركة التجـارة مع الصين والهـند بل والدولة البيـزنطية خـاصة فى فتـرات السلم وذلك بفضل سهـولة المواصلات البرية والبحرية. ولكى يسـهل ربط الشرق بالغرب فكر الرشيـد فى أن يوصل ما بين بحر الروم (المتوسط) وبـحر القلزم (الأحمر) مما يلى الفـرما، ولكن وزيره يحيى بن خالد ثناه عن هذا العمل بحجة أن الروم (البيزنطيين) يصبحون بواسطة هذه القنال قادرين على الاتصال بالأراضى المقدسة، فتأتى سفنهم إلى سواحل الحجاز وتقطع طريق الحج على المسلمين؛ لذلك عدل الرشيد عن فكرته.

ونتيجـة لازدهار التجارة تدفقت الأموال على بغـداد، وتكدس بيت المال بالأموال، وعاش الخليفـة هارون والبلاد فى ثراء، ومن مظاهر هـذا الثراء أن الرشيـد خلف ألف ألف دينار، ومن الأثاث والجوهر والورق والـدواب ما قيـمته مـائة ألف ألف دينار وخمـسة وعـشرون ألف دينار. كذلك سمى الناس أيامه - لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها- أيام العروس.



قنطرة فى تونس - عهد هارون الرشيد

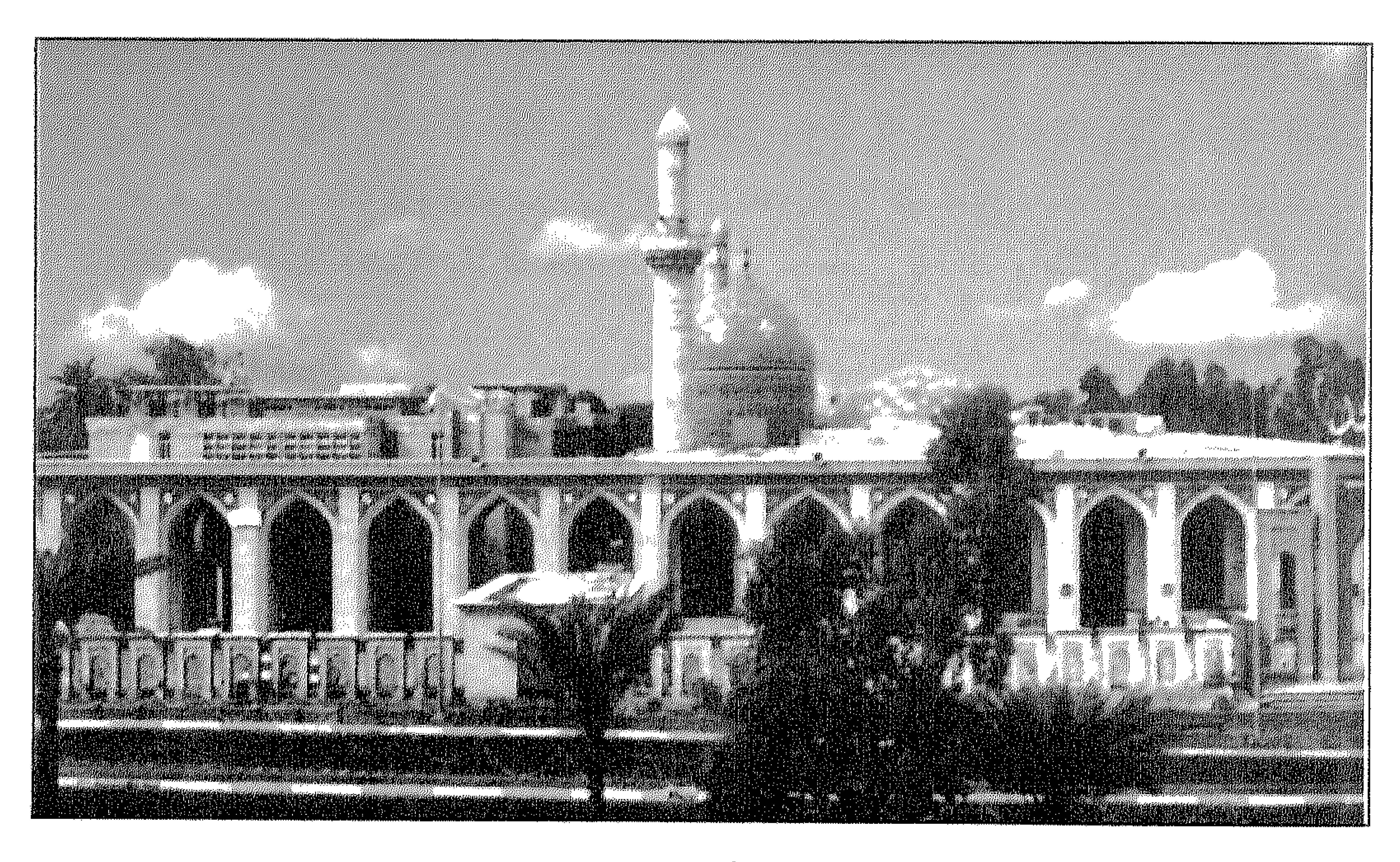




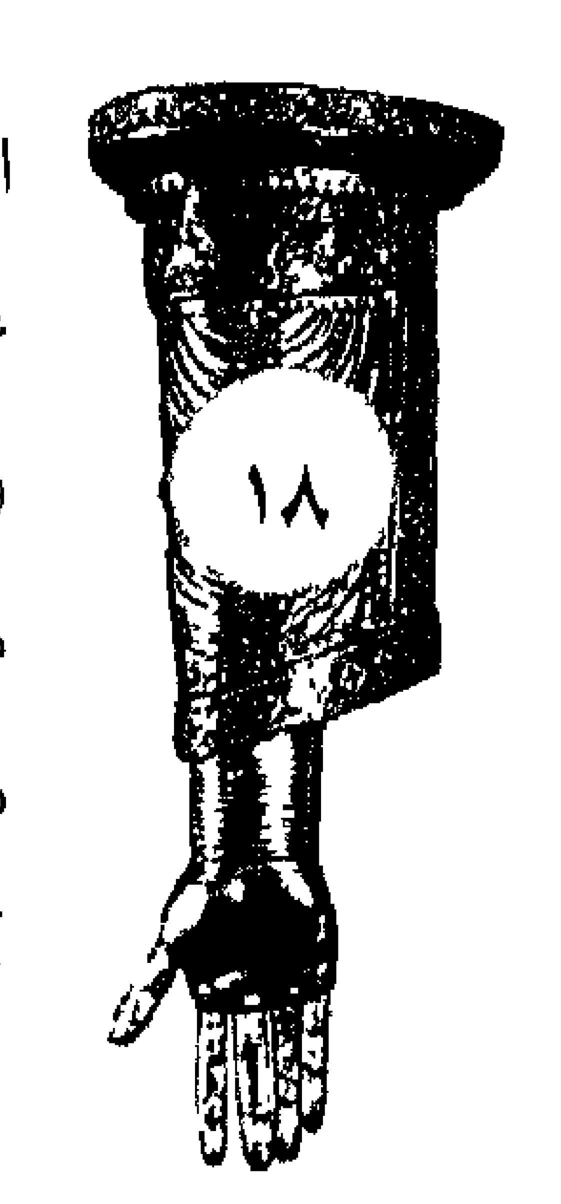
عملة فضية - عهد هارون -
ضرب نيسابور سنة ١٩٥ هـ

الحركة العلمية والفكرية في عصر الرشيد

نشطت الحركة العلمية والفكرية أيضا فى عهد الرشيد نشاطا كبيرا، واتسعت دائرة العلم فى عهده، واستدعى الأساتذة والعلماء من مختلف أقطار العالم، ولم يترك طريقا لاجتذاب أشهر



مسجد ومرقد الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان



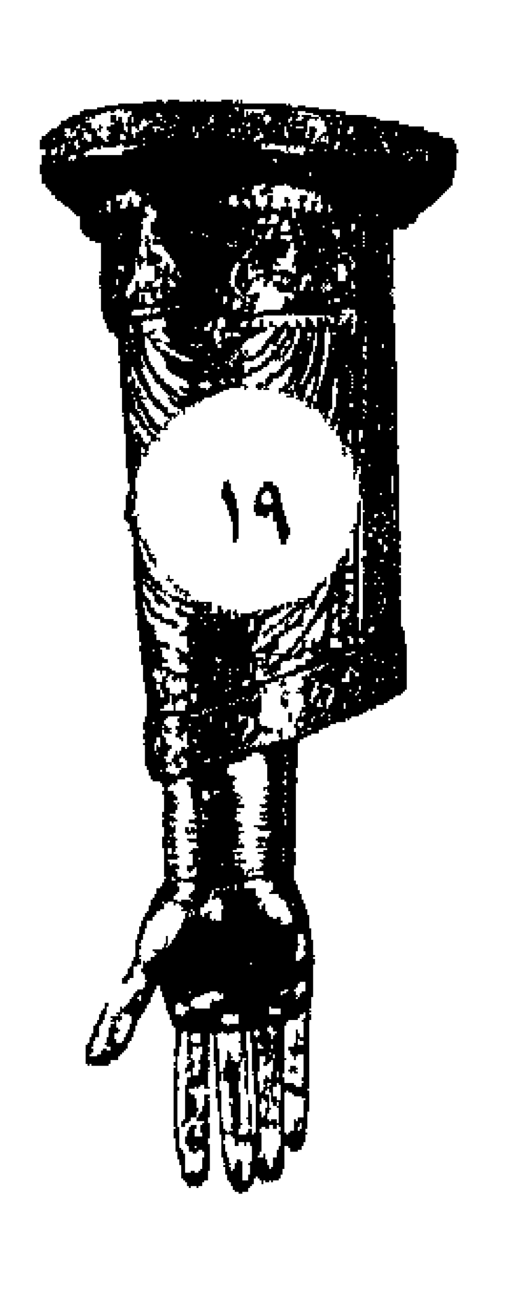
العلماء ورجال الأدب والفن إلى بلاطه إلا وسلكه؛ لذلك حفل بلاط بغداد فى عهد الرشيد بعدد من مشاهير العلماء والأدباء، ومنهم أبو عبيدة معمر المثنى وكانت له مهارة فى معرفة أخبار الأمم من عرب وغيرهم وقد تردد على مقر هارون الرشيد، وأصبح قريبا منه، وكان الفرس فى بغداد يرفعون من شأنه لأنه منهم. ومنهم أيضا الكسائى وهو فارسى أيضا وقد تتلمذ الرشيد على يديه، ثم أسند إليه مهمة تأديب ولديه الأمين والمأمون، ونبغ الكسائى فى النحو واللغة والمعانى والبيان والبديع وغير ذلك، وقد بلغ من تقدير الرشيد له أن رفعه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الندماء. ومن اللغويين كذلك الأصمعى وهو من أصل عربى، وصار جليسا للرشيد وعاش بجانبه زهاء خمسة عشر عاما.

على هذا النحو بلغت اللغة الذروة فى عهد الرشيد لنمو الثقافة والحضارة فى عهده، وشهدت علوم العربية نهضة جديدة وذلك بفضل كل من أبى عبيدة، والكسائى، والأصمعى وغيرهم.

وشهد بلاط الرشيد أيضا عددا من المحدثين والفقهاء والزهاد، كان الرشيد يعظمهم ويجلهم ويحترمهم، ومن هؤلاء: أبى معاوية الضرير، والفضيل بن عياض، وأبى يوسف. ومن دلائل تعظيمه لأبى معاوية أنه استدعاه يوما ليسمع منه الحديث، ثم دعاه الرشيد إلى طعامه، ويقول أبو معاوية: وقمت لأغسل يدى، فصب الماء على وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية أتدرى من يصب عليك الماء؟ قلت لا: قال: يصب عليك أمير المؤمنين، فقال أبو معاوية: فدعوت له: فقال: «إنما أردت تعظيم العلم».

أما عن أبى يوسف فهو يعقوب بن إبراهيم الأنصارى، أحد كبار فقهاء عصره، وهو تلميذ أبى حنيفة وكان واسع العلم، لبقا مما جعل الرشيد يعينه قاضى بغداد، وأطلق له الحق فى اختيار سائر القضاة وتوليتهم على الأمصار بشرط ألا يخالف أمر الرشيد، ولا يعترض عليه إذا عين أحدا. وقد طلب منه الرشيد أن يؤلف له كتابا ينظم سياسة الدولة الاقتصادية، فألف له كتابه المشهور (الخراج). وفى هذا الكتاب نظّم أبو يوسف للرشيد الضرائب، وأوجه الصرف والإيراد وغير ذلك، كما أن الكتاب يحوى بعض النصائح بشأن معاملة الأسرى، وأهل الذمة من اليهود والنصارى.

كذلك شهد بلاط الرشيد عددا من خيرة الشعراء فى عصره، ومن أشهر هؤلاء، أبو نواس، وأبو العتاهية، وضريح الغوان، ومسلم بن الوليد، وكلثوم العتابى، ومروان بن حفصة وغيرهم، وجميعهم أنشدوا فيه أشعارا.



شهد بلاط الرشيد أيضا عـددا من المغنين والموسيقيين، ومن أبرزهم إبراهيم الموصلى وابنه إسـحق نديم الرشـيد فى الغناء، وابـن جامع وإبراهيم المهـدى عم الرشيـد، وقد جعل الرشـيد المغنين مـراتب وطبقات على نحـو ما فعل أردشـير وأنوشروان كسرى الفرس، فكان فى الطبقة الأولى إبراهيم الموصلى وإسماعيل أبو القاسم، وفى الطبقة الثانية سليم بن سلام وعمـرو الغزال وأشباههما، وفى الطبقة الثالثة أصـحاب المعازف والطنابير. كذلك اجتـمع فى قصر الرشيد عدد كـبير من الجوارى المغنيات والعازفات على مختلف الآلات الموسيقية.

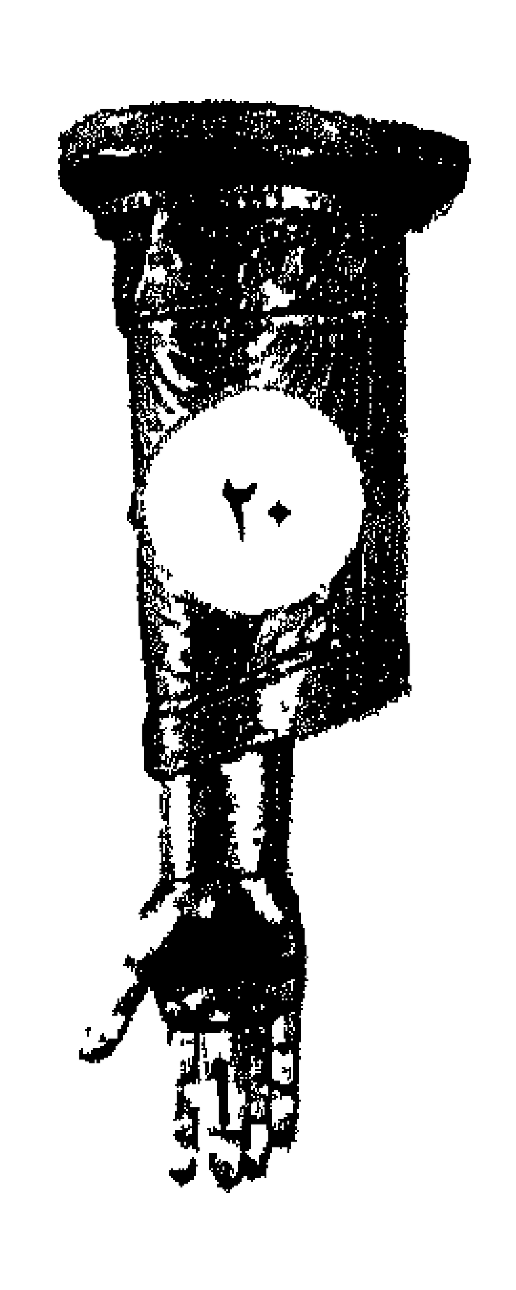
ومن العلوم التى شهـدت تقدما فى عـصر الرشيـد علم الفلك الذى بلغ درجة رفيـعة من التقـدم، وانتهى إلى نتائج لم ينتـه إليها الأوروبيـون إلا فى العصر الحـاضر كقـياس دائرة نصف النهار.

وعرف بلاط الرشيـد أيضا عددا كبـيرا من علماء الفلك والأطباء، سواء كـانوا يونانيين أم سريانا، ومن أشهر أطباء عصر الرشيد طبيبه جبريل بن بختيشوع، ويذكر ابن أبى أصيبعة «أنه كان مشهورا بالفضل، جيد التصرف فى المداواة، عالى الهمة، سعيد الجد، حظيا عند الخلفاء». ويذكر فى موضع آخر «أنه أمهر الأطباء، وليس فى الأطباء من يشاكله».

كان الرشيد ينتـصح بقول طبيبه جبريل فـيما يأكل ومقدار ما يشرب، وفيـه يقول الرشيد: «من يلومنى على محـبة هذا الرجل بالذى يدبرنى بهذا التـدبير»؛ وبلغ جبريل عند الرشـيد منزلة رفيعة حتى أنه كان يقول لأصحابه: «كل من كانت له إلىّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأنى أفعل ما يسألنى فيه، ويطلبه منى، فكان القواد يقصدونه فى كل أمورهم».

يتضح ممـا سبق أنه لم يجتـمع على باب خليـفة من العلماء والفـقهـاء والقضـاة والكتاب والأدباء والشعراء والمغنين والأطباء ما اجتمع على باب الرشيد.

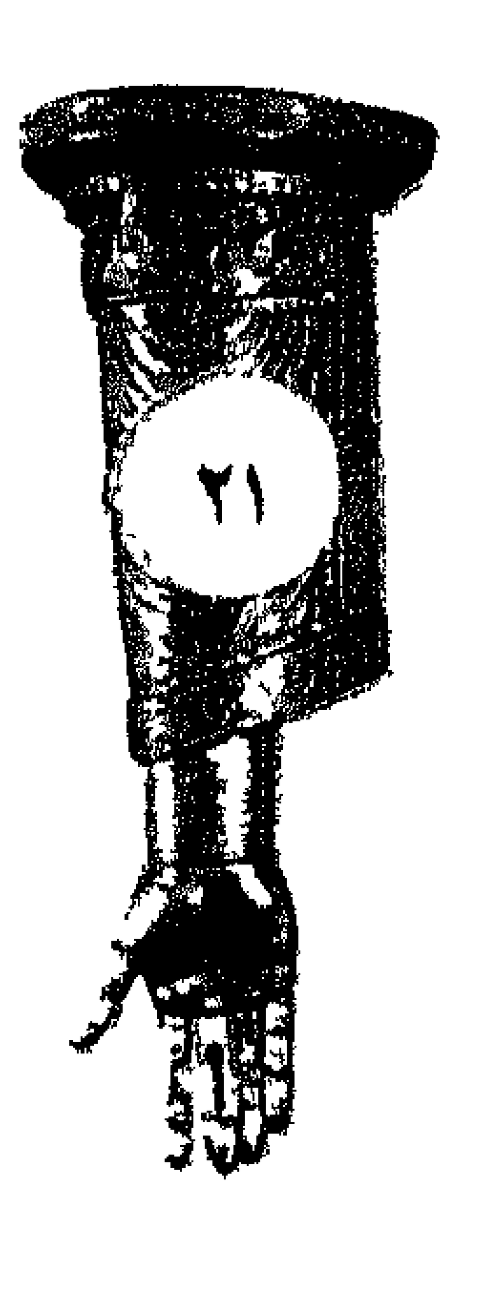
ازدهرت حركة الترجمة كذلك أثناء عصر الرشيد، ويرجع ذلك إلى توافد الكثير من العلماء على بغداد فى عـهده من العارفـين باللغات كالسـريان والفرس والروم، والهنود وغيـرهم، وكان منهم من تعلم اللغة العربية لأنهـا اللغة الرسمية للدولة فحملهم الرشيـد على ترجمة الكتب. أما العامل الثانى فى ازدهار حـركة الترجمة فيـرجع إلى حصول الرشيد أثناء غـزواته المتعددة فى بلاد الروم على الكتب النفيـسة، تلك الكتب لم يكن يحرقـها أو يبددها بل كان ينقلهـا إلى بغداد فى عناية، ولقد عـثر الرشيد فى حـروبه فى أنقره وعمورية وغـيرها من بلاد الروم على كتب كـثيرة فحملها إلى بغداد، وأمر طبيبه ابن ماسـويه بترجمة هذه الكتب، ورتب له كُتّابا حذاقا يكتبون بين

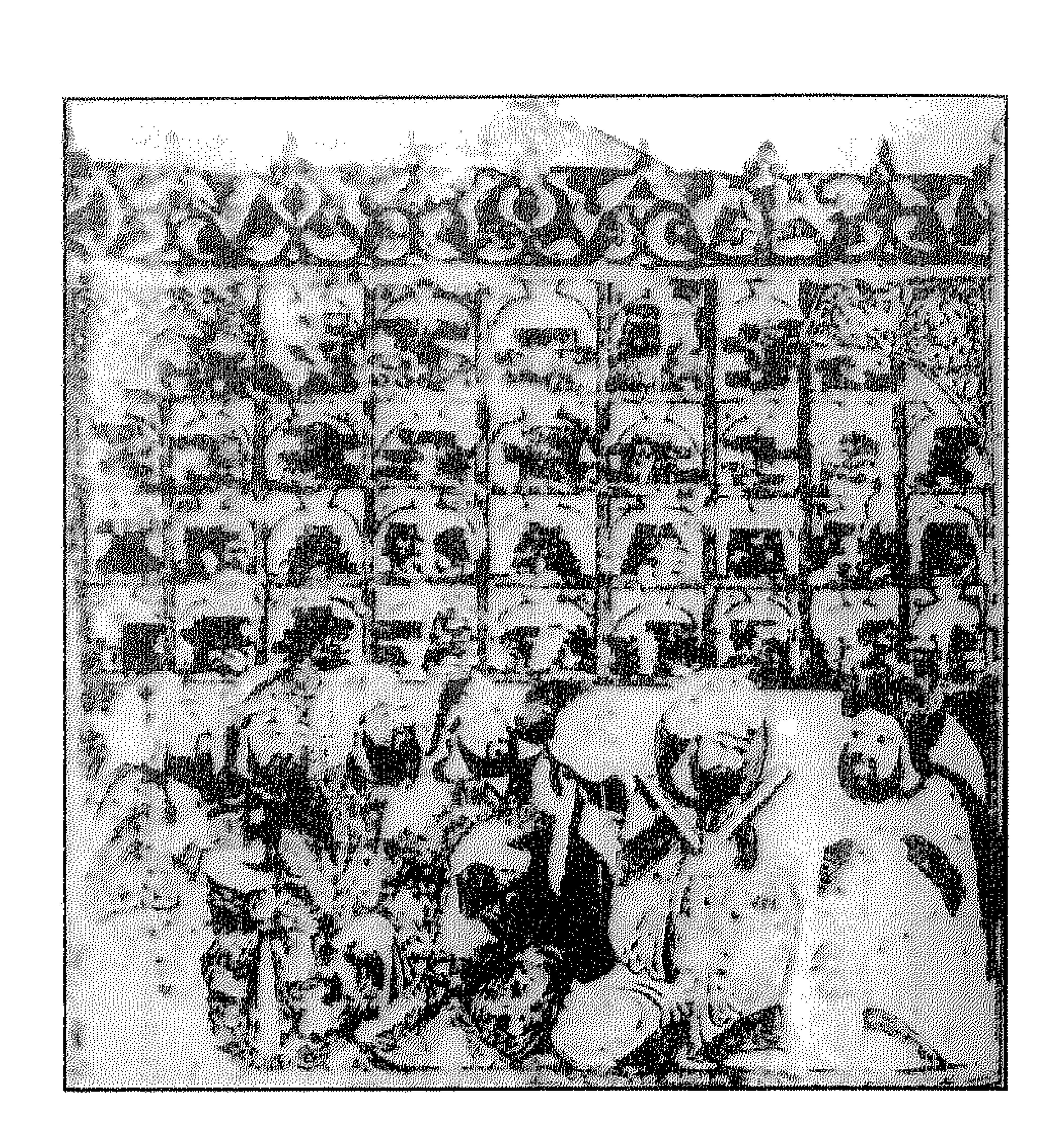




طبق فضى مكفت بالذهب يصور
حياة الطرب والسمر - ق٩ إيران

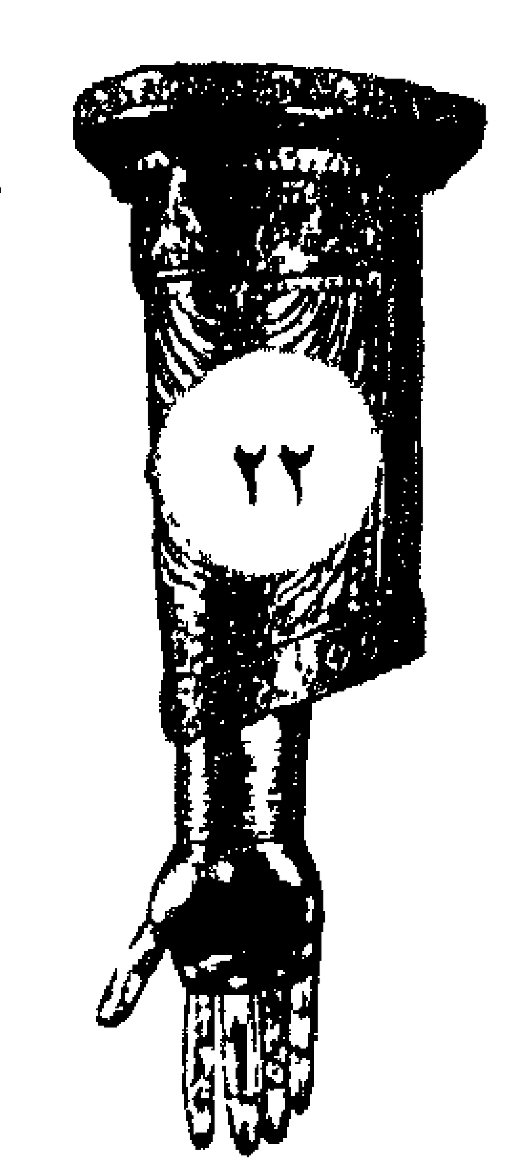
صفحة من كتاب «منافع الحيوان» عن ابن بختيشوع





منمنمة فارسية تصور مكتبة بغداد

قصر الحاكم العباسى - بغداد

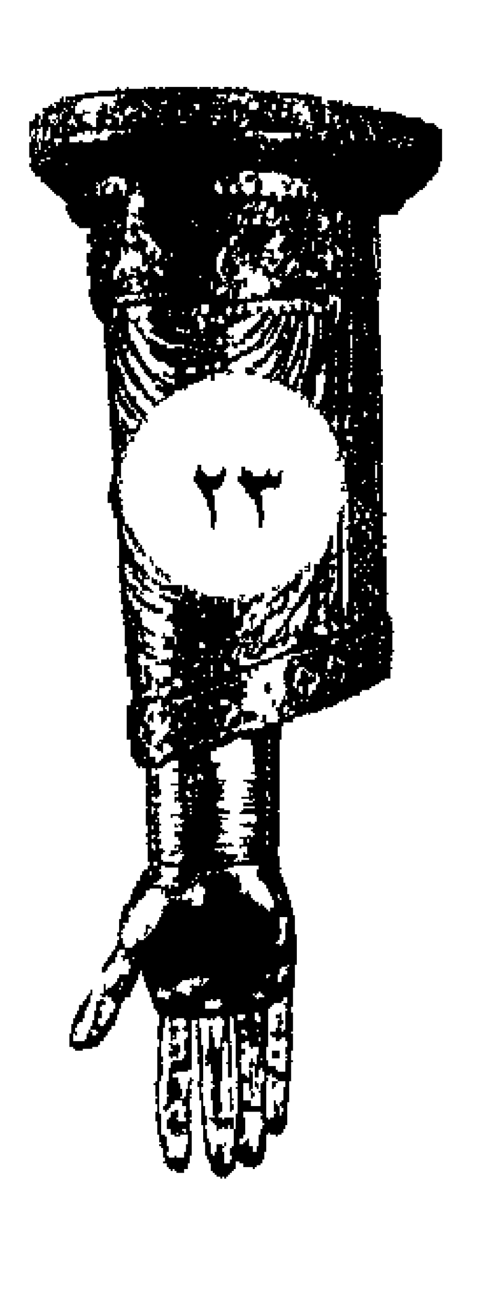


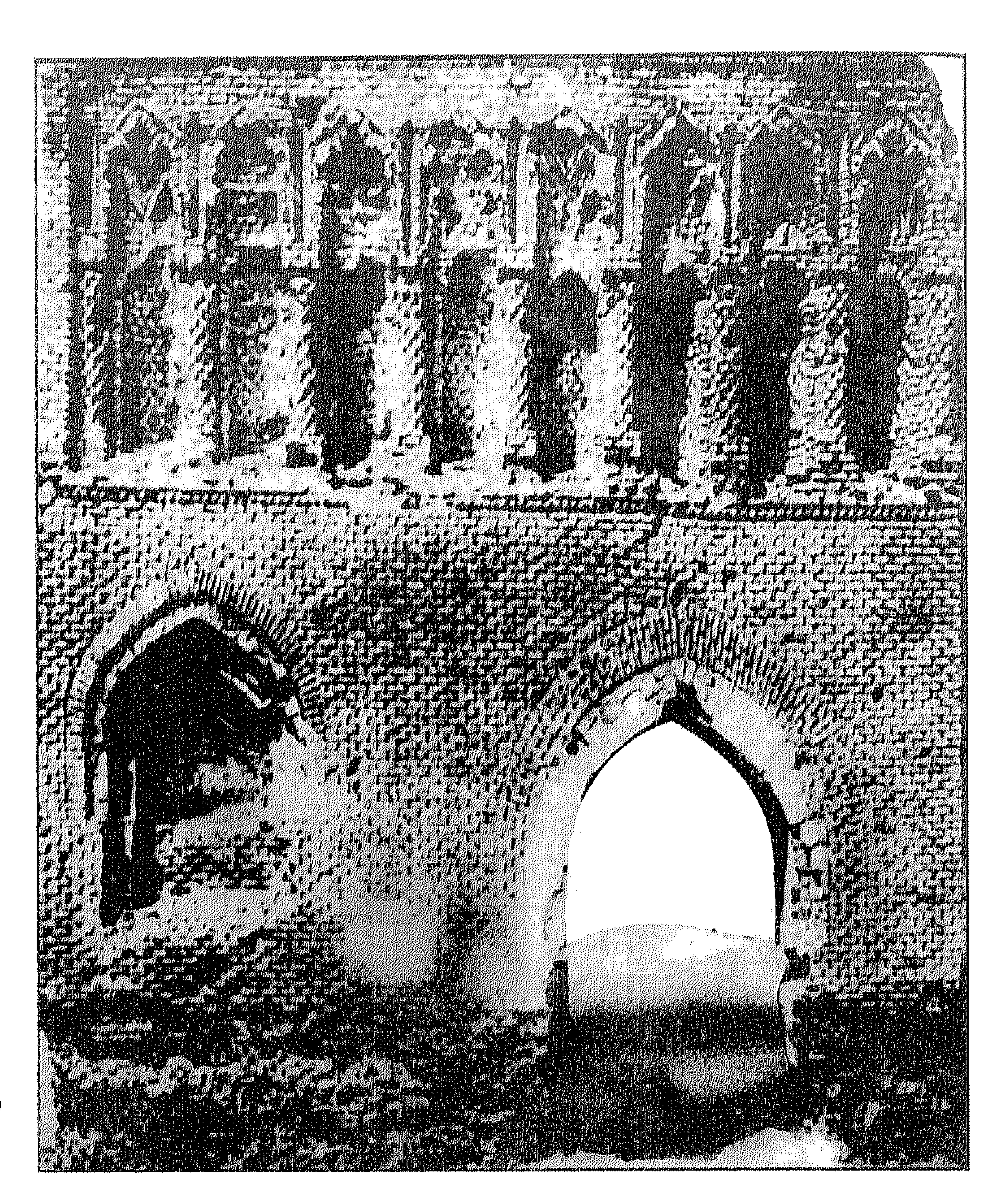
يديه. وأمر الرشيد كذلك الحجاج بن مطر بترجمة كتاب إقليدس فى الهندسة، وكانت ترجمته إلى العربية هذه لأول مرة، ثم ترجم فيما بعد ثانية، وميزوا الترجمة الأولى بأن أطلقوا عليها اسم (الترجمة الهارونية) نسبة إلى هارون الرشيد.

وقام أبو سهل نوبخت - وهو من أصل فارسى - بنقل الكثير من الكتب الفارسية إلى العربية حينما تولى منصب رئيس بيت الحكمة. ومثله «علان الفارسى». وكان يعمل فى خزانة الحكمة، ويترجم للرشيد والبرامكة أيضا، وغير هؤلاء عدد كبير من المترجمين عن السريانية واليونانية واللاتينية وغيرها.

ونتيجة لازدهار حركة الترجمة فى عهد الرشيد ونشاطها ظهرت فى عهده مجموعة كبيرة من الكتب المنقولة عن مختلف اللغات المعروفة فى هذا العصر من علوم الطب والفلك والفلسفة والأدب والقصص وغيرها، هذا فضلا عن المؤلفات الجديدة التى أنتجها علماء العربية فى مختلف أنواع العلوم، كاللغة والنحو والتاريخ والسير وغيرها. وبذلك ضمت خزانة بيت الحكمة فى أواخر عهد الرشيد كثيرا من الكتب المترجمة عن اليونانية والفارسية والسريانية وبعض اللغات الهندية إلى جانب الكتب العربية.

لم يهتم هارون الرشيد بالحركة العلمية والفكرية فى بغداد وحدها، بل وفى الأمصار والولايات التابعة للدولة العباسية كذلك، فقد كتب إلى ولاة الأمصار التابعة للخلافة، وإلى أمراء الأجناد يطالبهم بتشجيع العلم وأهله فقال: «فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه فى ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على العلم، وعمر مجالس العلم، ومقاعد الأدب فاكتبوه فى ألف دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه فى العلم فاكتبوه فى أربعة آلاف دينار من العطاء، واسمعوا قول فضلاء عصركم وعلماء دهركم».





بوابة بغداد التى بناها هارون

اهتم هارون الرشيد أيضا بالتشييد والبناء، فبنى فى البداية قصرا جميلا فى جزيرة ابن عمر، وفى أحد أعمالها ليقضى فيه فصل الصيف، ولكن بُعْد هذا المصيف عن عاصمة الدولة جعله يتخلى عن هذا القصر، كذلك شيد هارون قصرا عظيما سماه «قصر السلام» بجانب مدينة الرقة، وقد اتخذ من هذا القصر مقرا لبلاطه عندما كان يقيم فى الرقة، أما مقر بلاطه فى بغداد فكان «قصر الخلد» الذى بناه جده المنصور فى الجانب الغربى من نهر دجلة.

وكان القصران من أفخم قصور الدنيا فى ذلك العهد وأكبرها سعة وجمالا، وقد أوعز الرشيد لبعض رجال دولته أن يبنوا قصورهم بجانب قصره فى الرقة، فبنوا، وأمر بإنشاء كل ما يلزمها من وسائل الراحة والترف كميادين سباق الخيل، وملاعب الصوجان وحقول الصيد، وموانئ السفن، والمتنزهات الواسعة والحدائق المزهرة على ضفتى الفرات.

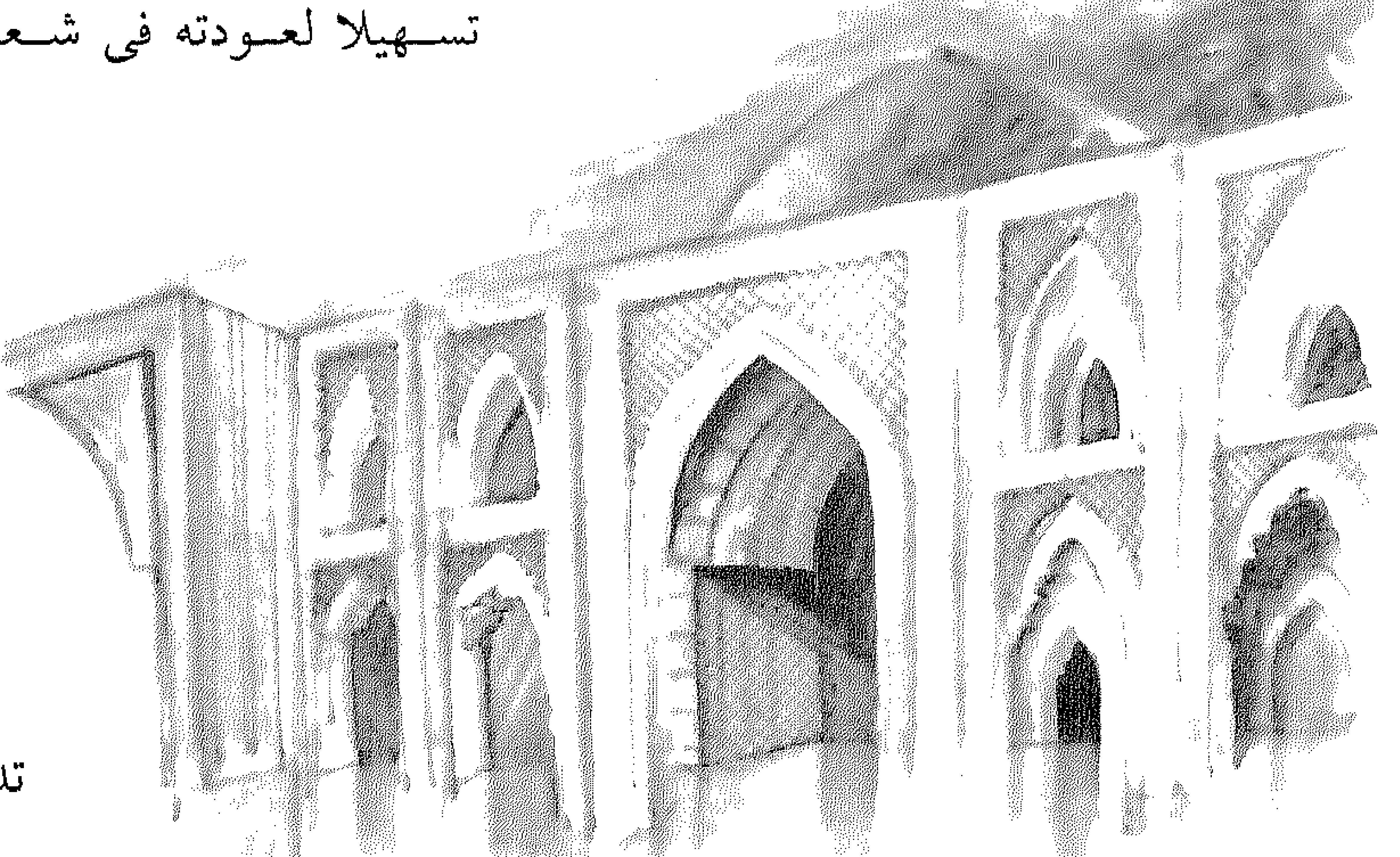


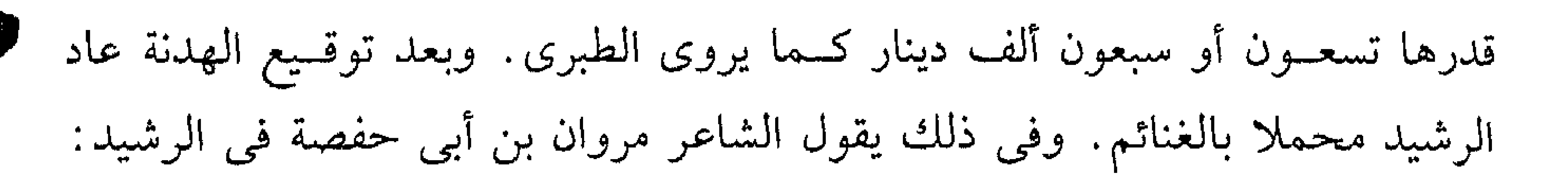
أولا: هارون الرشيد والبيزنطيون:

من أهم الحروب التى خاضها الرشيد قبل أن يصبح خليفة وبعد أن أصبح خليفة هى حروبه ضد الدولة البيزنطية، أكبر قوة سياسية وحربية فى ذلك العصر، بل وأكبر مركز حضارى فى العالم المسيحى.

فقد عرف الرشيد ميدان الحرب والقتال وقيادة الجيوش قبل توليه الخلافة، فسار مع أبيه المهدى فى عام ١٦٣هـ/ ٧٧٩م لغزو بلاد الروم (أى أراضى الدولة البيزنطية) وتمكن الرشيد من الاستيلاء على عدة حصون، وعاد منتصرا مظفرا، ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.

وفى عام ١٦٥هـ/ ٧٨١ م أرسله أبوه الخليفة المهدى مرة ثانية على رأس جيش ضخم، وتوغل هارون بجيوشه فى آسيا الصغرى، وحقق انتصارات رائعة على البيزنطيين، ووصل إلى مدينة كريسوبوليس Chrysopolis على البوسفور، واضطرت الإمبراطورة الجالسة على عرش بيزنطة فى ذلك الحين وهى الإمبراطورة (إيرينى) كوصية على ابنها قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) إلى طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفدية، فقبل ذلك منها واشترط عليها: الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه تسهيلا لعودته فى شعاب الأناضول الوعرة. وقبلت الإمبراطورة إيرينى شروط الرشيد، وأجابته إلى ما سأل، وتم عقد هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع بيزنطة جزية سنوية





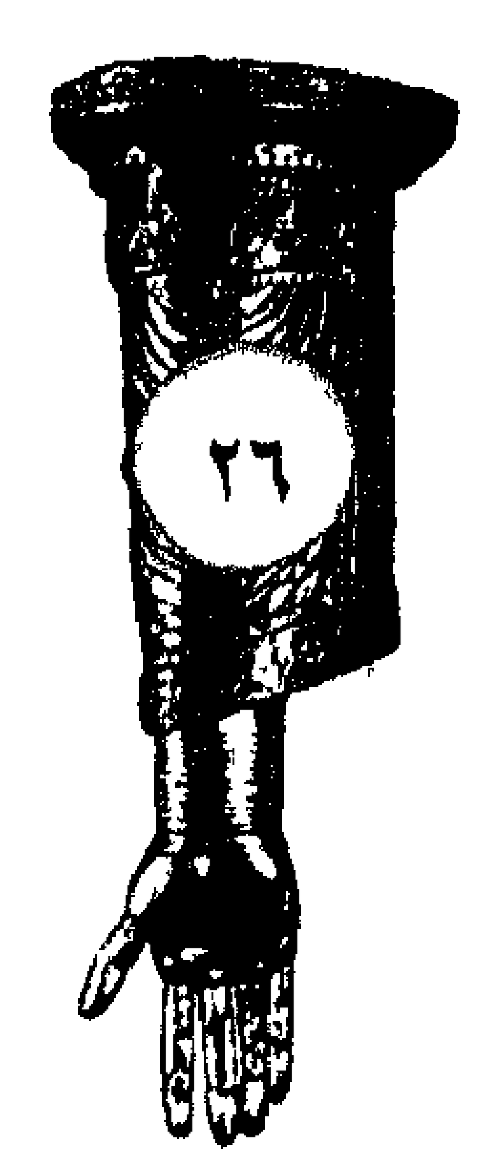
قدرها تسعون أو سبعون ألف دينار كما يروى الطبرى. وبعد توقيع الهدنة عاد الرشيد محملا بالغنائم. وفى ذلك يقول الشاعر مروان بن أبى حفصة فى الرشيد:

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا إليها القنا حتى اكتسى الذل أسوارها

أضفت حروب الرشيد مع البيزنطيين على عصره بهاء خاصا، فهى من مآثر حكمه ورمز بطولته كجندى مجاهد، لذلك أولّاها الرشيد - حينما أصبح خليفة فى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م - اهتماما خاصا وعناية كبيرة، فقام بتنظيم الحدود المواجهة للبيزنطيين، واهتم بتحصينها فى نفس العام الذى تولى فيه الخلافة (١٧٠هـ)، وفصل الثغور الشامية عن الجزرية وسماها (العواصم) وجعلها منطقة عسكرية خاصة واهتم بتحصينها، كما عمر مدينة طرسوس الشهيرة - على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط) لتكون نقطة انطلاق لجهاد المسلمين عبر البر والبحر، ومركزا من مراكز الجهاد وذلك على يد أبى سليم فرج الخادم التركى، وكان الرشيد يهدف من وراء ذلك إلى إيجاد وحدة عسكرية قوية.

ثم قام الرشيد بتوجيه الحملات الإسلامية المتتابعة ضد بيزنطة فى الصوائف والشواتى، التى سيرت تباعا إلى الأراضى البيزنطية فى أعوام ١٧٠هـ، ١٧٢هـ، ١٧٤هـ، ١٧٧هـ.. وهكذا، وكانت تلك الحملات تستهدف إنهاك قوى الدولة البيزنطية والحصول على أكبر قدر من الغنائم والعبث بالأراضى البيزنطية وتدمير حصونها.

كتدرائية سانت إيرينى البيزنطية



وفى عام ١٨١هـ/ ٧٩٧م قام الخليفة هارون الرشيد بنفسه بغزو أرض الروم بسبب نقضهم المعاهدة التى عقدوها أيام المهدى، وتعهدوا فيها بدفع الجزية، واستولى الرشيد عنوة على حصن الصفصاف بالقرب من المصيصة، وفى ذلك يقول مروان بن حفصة:

إن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفصاف قاعا صفصفا

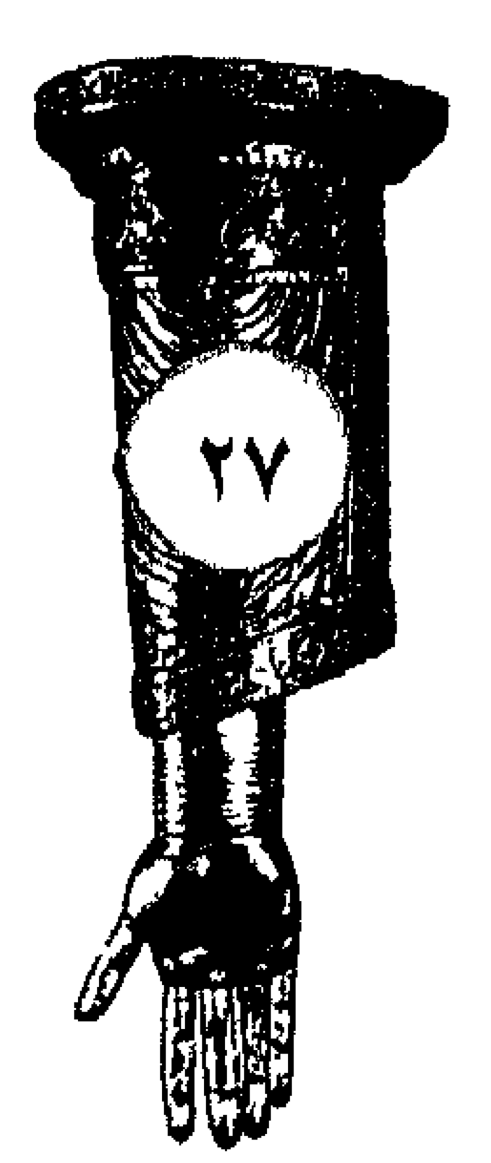
وتم عقد هدنة جديدة بين الرشيد والبيزنطيين، تعهد فيها البيزنطيون بدفع إتاوة سنوية، مثلما كان الحال فى عهد الخليفة المهدى، كما عقد بين الطرفين أول اتفاق فى عهد الرشيد لتبادل الأسرى.

وفى العام التالى ١٨٢هـ/ ٧٩٨م غزا عبد الرحمن بن عبد الملك أرض الروم وأثخن فيها، ووصل فى سيره المظفر حتى مدينة أفسوس فى آسيا الصغرى. وفى تلك الأثناء وقعت فى الدولة البيزنطية أحداث داخلية تتلخص فى أن الأمبراطورة إيرينى قامت بإلقاء القبض على ابنها قسطنطين السادس، وسملت عينيه، واعتلت العرش بدلا منه؛ غير أنها لم تهنأ بالعرش طويلا فما لبث أن قامت ثورة ضدها بقيادة نقفور، وزيرها الأول والمسئول السابق عن خزانة الدولة البيزنطية. والذى تمكن من انتزاع العرش من إيرينى، وألقى القبض عليها وسجنها فى عام ١٨٦هـ/ ٨٠٢م.

حاول الإمبراطور البيزنطى الجديد نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١م) الذى خلف إيرينى على العرش، إلغاء الهدنة التى عقدتها هذه الإمبراطورة مع الخليفة المهدى والرشيد واسترجاع الإتاوات التى دفعتها للخلافة العباسية، فكتب نقفور للرشيد يقول: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيذق فحملت إليك من أموالها... ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابى فأردد ما حصل قبلك من أموالها.. وإلا فالسيف بيننا وبينك». وغضب هارون وأجابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام». وكتب هذه الرسالة على ظهر نفس رسالة نقفور وأرسلها إليه.

أغار هارون الرشيد بنفسه على أقاليم الدولة البيزنطية، ولبس قلنسوة كتب عليها (غاز حاج). واستولى على عدة حصون ومعاقل منها هرقلة الواقعة على جبال طوروس، وفتحها فى شوال ١٩٠هـ/ ٨٠٦م، بعد أن حاصرها شهرا، ثم أخربها وسبى أهلها بعد أن قام ثلاثين يوما عليها.



كما هاجم الرشيد الطوانة ـ الواقعة شمال قلعة اللؤلؤة ـ واضطر الإمبراطور البيـزنطى نقفور إلى طلب الصلح، وبعث إلى الـرشيد بالخراج والجـزية عن رأسه وولى عهـده وبطارقته وسـائر أهل بلده خمسـين ألف دينار منها عن رأسـه أربعة دنانير، وعن رأس ابنه دينارين. واشترط الرشيد على نقفور ألا يعمر الحصون التى هدمهـا المسلمون وخـاصة هرقلة، وأن يدفع له جـزية سنوية قدرها ثلثـمائة ألف دينار.

ولكن لم تستمر الـهدنة بين هارون وبيزنطة خاصة بعد أن غـدر البيزنطيون بأحـد قادة هارون وهو يـزيد بن مخلد وقـتلوه فى عـام ١٩١هـ/٩٠٧م، ويروى الطبرى فى أحـداث هذه السنة ما يلى: «وفيـها غزا يزيد بن مخلد أرض الروم فى عـشرة آلاف، فأخذت الروم عليه المضيق، فقتلوه على مقربة من طرسوس».

ويبدو أن ذلك أغضب هارون ودفعه إلى أن يهدم الكنائس بالثـغور وأجبر أهل الذمة ببغداد بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم.

وولى الرشيد فى عام ١٩٢هـ / ٨٠٨م ثابت بن نصر بن مالك الثغور وغزا، فافتتح حصن مطمورة، وهزم نقفور بعد أن أرسل الرشيد إليه الإمدادات.

خلاصة القول أن الخليفة هارون الرشيـد حارب البيزنطيين وأخضع أباطرتهم أولا إيرينى ثم نقفـور بشكل لم يسمع بـه من قبل، ولم تنقطع حـروبه معهم ومـن ثم فليس فيمـا تردده بعض الروايات الإسلاميـة من أن الرشيد كان يغـزو عاما ويحج عاما كـبير مبالغـة فيما يظهـر، فيمكن إحصاء الغزوات الإسـلامية لأراضى الدولة البيزنطيـة فى عهد الرشيد الذى استمـر ثلاثة وعشرين عاما بأكـثر من اثنتى عشرة غزوة، قـاد الرشيد منها عـدة غزوات بنفسه، وسيـر الباقى تحت إمرة بعض أبنائه أو كبار قواده؛ لذلك لاعجب أن جعل الإمبراطور البيزنطى نقفور ـ كما يذكر البعض ـ من يوم موت الرشيد فى ٣ من جمادى الثانيـة ١٩٣ هـ / ٢٤ مارس ٨٠٩ م يوم عيد للبيزنطيين، إذ تخلص من خصم قوى عنيد أرق الإمبراطورية البيزنطية سنوات طوال.

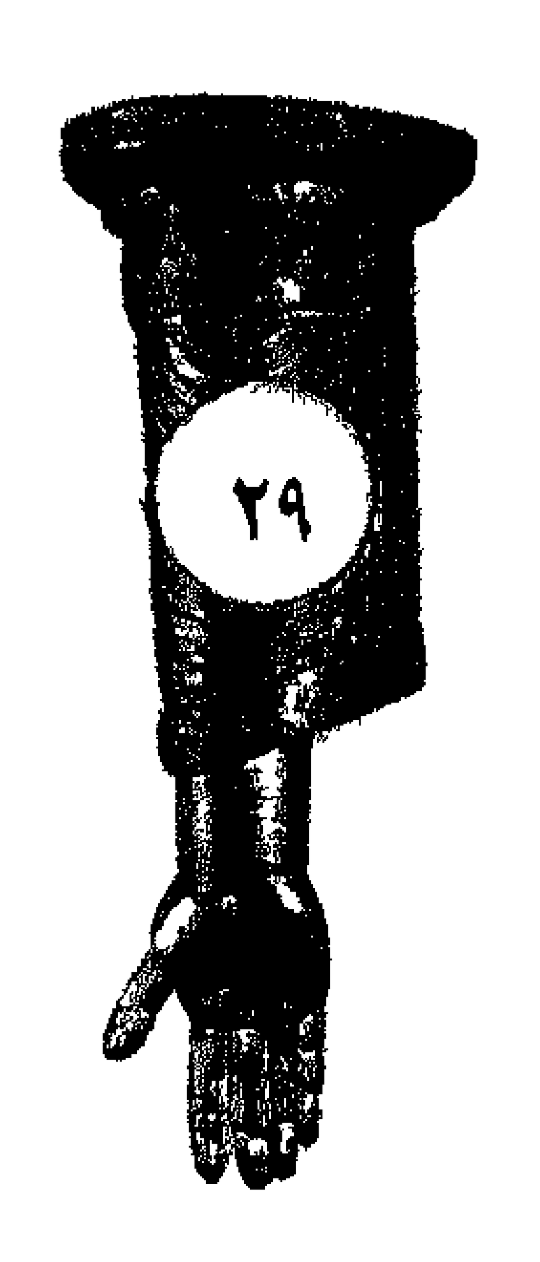
ثانيا: الرشيد والأمويون فى الأندلس:

انفصلت الأندلس عن جـسد الدولة العبـاسية، إذ نجح أحـد أمراء البيت الأموى وهو عـبد الرحمن بن مـعاوية المعروف بعـبد الرحمن الداخل فى النجـاة من أيدى العباسـيين سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م والهرب إلى الأندلس، وتمكن من إقامة دولة أمـوية مستقلة تماما عن الخلافة العباسـية ليعيد ملك الأمويين فى المغـرب بعد أن انتهى فى المشـرق، غير أن العبـاسيين لم يرتاحوا لهـذا النجاح

مسجد قرطبة من الداخل

ونظروا إليه بعين الخيفة والتوجس لما يترتب عليه فى المستقبل من خطر يتهدد أقاليمهم فى الغرب؛ ولذلك حاول الخليفة الثانى وهو المنصور القضاء على عبد الرحمن ودولته وإعادة بلاد الأندلس إلى حظيرة الخلافة العباسية مستغلا فى البداية الصراع القبلى بين القبائل العربية فى الأندلس فى إثارة المتاعب والفتن ضد عبد الرحمن، ولكن فوت عليه عبدالرحمن الفرصة، ونجح فى حل مشاكله الداخلية وتسكين العصبية القبلية فى بلاده. عندئذ لجأ المنصور إلى القوة فأرسل فى عام ١٤٦هـ/٧٦٣م حملة إلى الأندلس من إفريقية

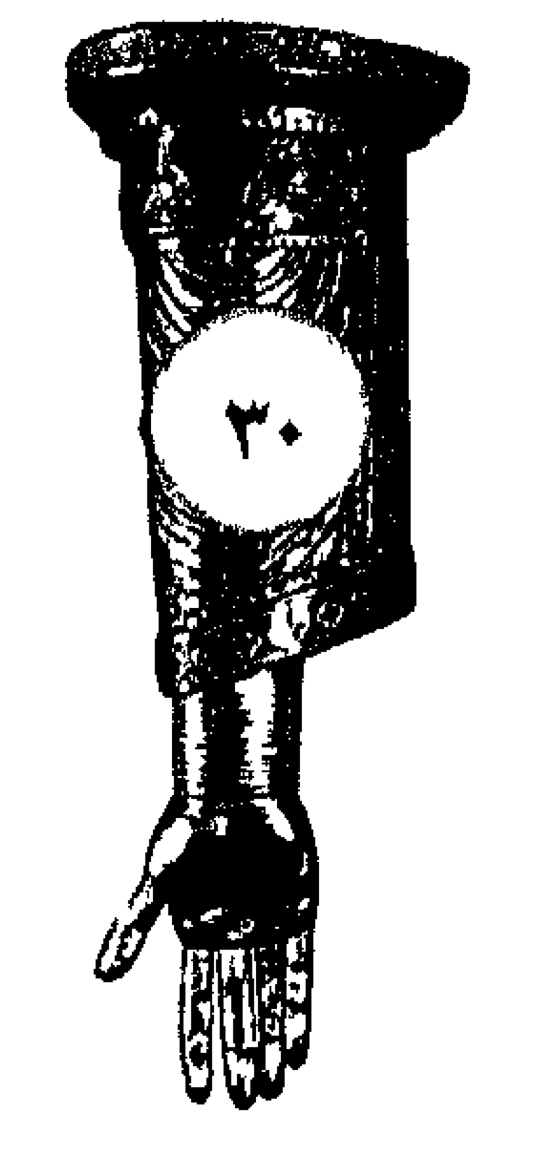
معركة ضد الروم



للقضاء على عــبد الرحمن الداخل، وكانت هذه الحملة بقيــادة العلاء بن المغيث، عامله على إفريقــية، وتم اللقاء بينهمــا بنواحى أشبيلية، وأسفــر عن هزيمة العلاء وقتله، وإرسال رأســه إلى المنصور أثناء أدائه فريضة الحج، فأصاب الذعــر الخليفة وقال جملته المشهورة شاهدا فيها على قوة بأس عبد الرحمن وهى «الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحرا».

ولما فشل المنصور فى القضاء على عبد الرحمن الداخل وإعادة الأندلس عن طريق القوة، لجــأ للبحث عن حليف ضــد عبد الرحــمن الداخل، ووجد ضــالته المنشــودة فى دولة الفرنجة ومــلكها بيبن القــصير (٧٥٣-٧٦٨م)، إذ كــانت الدولة الأموية فى الأندلس تشكل أيضا خطرا داهما بالنسبة لها.

نظر الرشيد كــذلك إلى الدولة الأموية فى الأندلس بعين الحذر ولكنه لم يصطدم بهــا لبعد الشقة بينه وبينها من ناحــية ولانشغاله بقيام دولة الأدارسة فى المغــرب الأقصى، التى كانت تتاخم حدوده فى شمال إفريقية من ناحية أخرى ولانشغال الأمويين بالجهاد ضد دولة الفرنجة وغزوها من ناحية ثالثة. وقد لجأ الرشيد إلى نفس سياسة جده المنصور فى التقرب من دولة الفرنجة للوقوف فى وجه العــدو المشترك، وحــدث بينه وبين ملكها شــارلمان نوعًا من التــقارب وارتبطا بعلاقــات مودة وصداقة ومحبة على نحو ما سنرى.



الفصل الثانى
شارلمان (١٥٥-١٩٩هـ/٧٧١-٨١٤م)

ولد شارل عـام ١٢٦هـ/٧٤٣م، وأبوه هو بيبن القصيـر أكبر دهاة الفـرنجة ومن خيرة مستشاريهم، توج بيبن ملكا على الفرنجة بعد ولادة شارل بعشر سنوات أى فى عـام ٧٥٤م، وظل يحكم الفرنجـة لمدة خـمس عشـرة سنة أو تزيد، توفى بعدها فى باريس عام ١٥١هـ/٧٦٨م تاركا ولدين هما: كارلومان وشارل، وابنة واحدة هى جيزلة Gisela. ويذكر أينـهارد مؤرخ شـارلمان أنه بعد وفـاة بيبن القصـير «انتقل العـرش إلى ولديه.. واقتسما المملكة كلها بالتساوى بينهـما». ولم يمض زمن طويل حتى وقع كارلومان فريسة للمرض ومات، وعندئذ انتـخب شارل بالإجـماع ملكا على الفرنجة فى عام ١٥٥هـ/ ٧٧١م.

وقد اجتمع لشارل أثناء حياته العديد من الألقاب والنعوت، ومن أهمها هذا اللقب الذى اشـتهـر به وهو لقب (العظيم أو الـكبيـر) ولم يلبث هذا اللقب أن ارتبط باسمه، فأصبح يطلق عليـه شـــارل العظيم Karolus Maganus ثم امتزج اللفظان فى لفظة واحة، فصارت شارلمان Charlemaines.

كان شارلمان كـما يصفه مـؤرخه إينهارد «ضـخم الجسم، قـوى البنيـة، طويل القامـة، وكانت عيناه واسعتين، وأنفه مائلا إلى الطول، وشعره أشقر، ووجهه مشرق المحيا؛ ولهذا كان مظهره يدل على الهيبة والوقار على الدوام».

واتصف شـارلمان أيضـا بالورع والتقـوى والتـمسك بمبـادئ الديانة المسيـحيـة التى شب عليـهـا منذ طفـولته، وحـرص شـارلمان على المواظبة على الصلاة فى الكنيسـة بصفة دائمة ما



شارلمان - رسم من كتاب تاريخ العسكرية

٣١

دامت صحته تسمح له بذلك، حيث كان يمضى إليها صباحا ومساءً وحتى أثناء الليل كما يروى إينهارد، هذا فضلا عن حضوره أوقات القداس، كما كان بارعا فى التلاوة والترتيل فى الكنيسة.

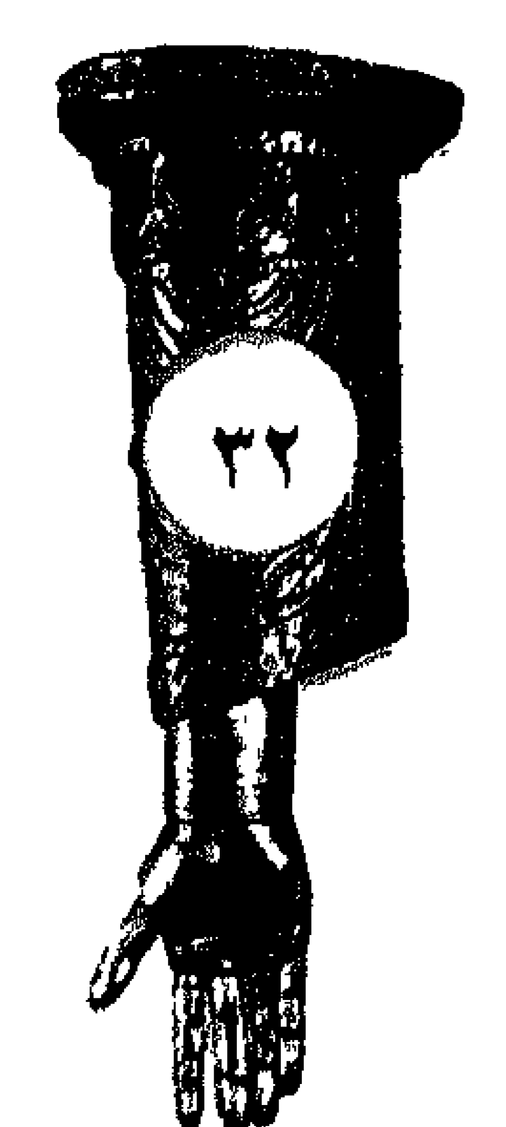
وكان شارلمان كذلك كثير الصدقات، يتصف بالكرم، وكانت لديه الرغبة فى مساعدة الفقراء، وفى تقديم الصدقات والهبات للمحتاجين، ولم يقتصر عطاؤه على الفقراء والمحتاجين من أبناء مملكته بل اعتاد أن يبعث الأموال إلى ما وراء البحار، إلى سورية ومصر وإفريقية وبيت المقدس والإسكندرية وقرطاجة لمساعدة فقراء المسيحيين فى تلك الجهات. كما غمر خزانة كنيسة القديس بطرس الرسول في روما بمقادير كبيرة وضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وأرسل إلى البابوات بهدايا قيمة لا حصر لها.

أما عن **دراسات شارلمان**، فقد تلقى شارلمان دروسا فى النحو على يد الشماس بطرس البيزاوى Peter of Pisa، أما الفروع الأخرى من المعرفة فقد تلقاها على يد شماس آخر اسمه الكوين، وكان من أعظم علماء عصره، وقد درس شارلمان على يديه علم البلاغة والجدل وعلم الفلك والحساب وغيرها.

وتميز شارلمان بسرعة البديهة وطلاقة الحديث، وكان قادرا على أن يعبر بوضوح تام عن كل ما يريد أن يقوله، ولم يكتف بقدرته الفائقة على أداء ما يجب بلغته الفرنجية - وهى إحدى اللغات الجرمانية المشتقة من أصل هندو أوربى - فحسب وإنما اهتم بدراسة اللغات الأجنبية، وبلغ من إتقانه اللاتينية مثلا أنه صار يتحدث بها كما يتحدث بلغته القومية، إلا أن فهمه لليونانية كان يفوق قدرته على التحدث بها.

كنيسة القديس بطرس القديمة - بازيليكا - روما

ومع ذلك لم يكن شارلمان يعرف الكتابة، فقد تعلمها وهو فى سن متقدمة فيذكر إينهارد: «حاول شارلمان تعلم الكتابة، ولهذا الغرض، اعتاد أن يحتفظ بألواح الكتابة والقراطيس فى السرير تحت وسادته، ليدرب يده فى أوقات الفراغ على رسم الحروف، غير أن شارلمان لم يبدأ ببذل جهوده هذه فى السن المناسبة، وإنما فى وقت متقدم من حياته؛ ولهذا فقد كان لهذه الجهود نجاح

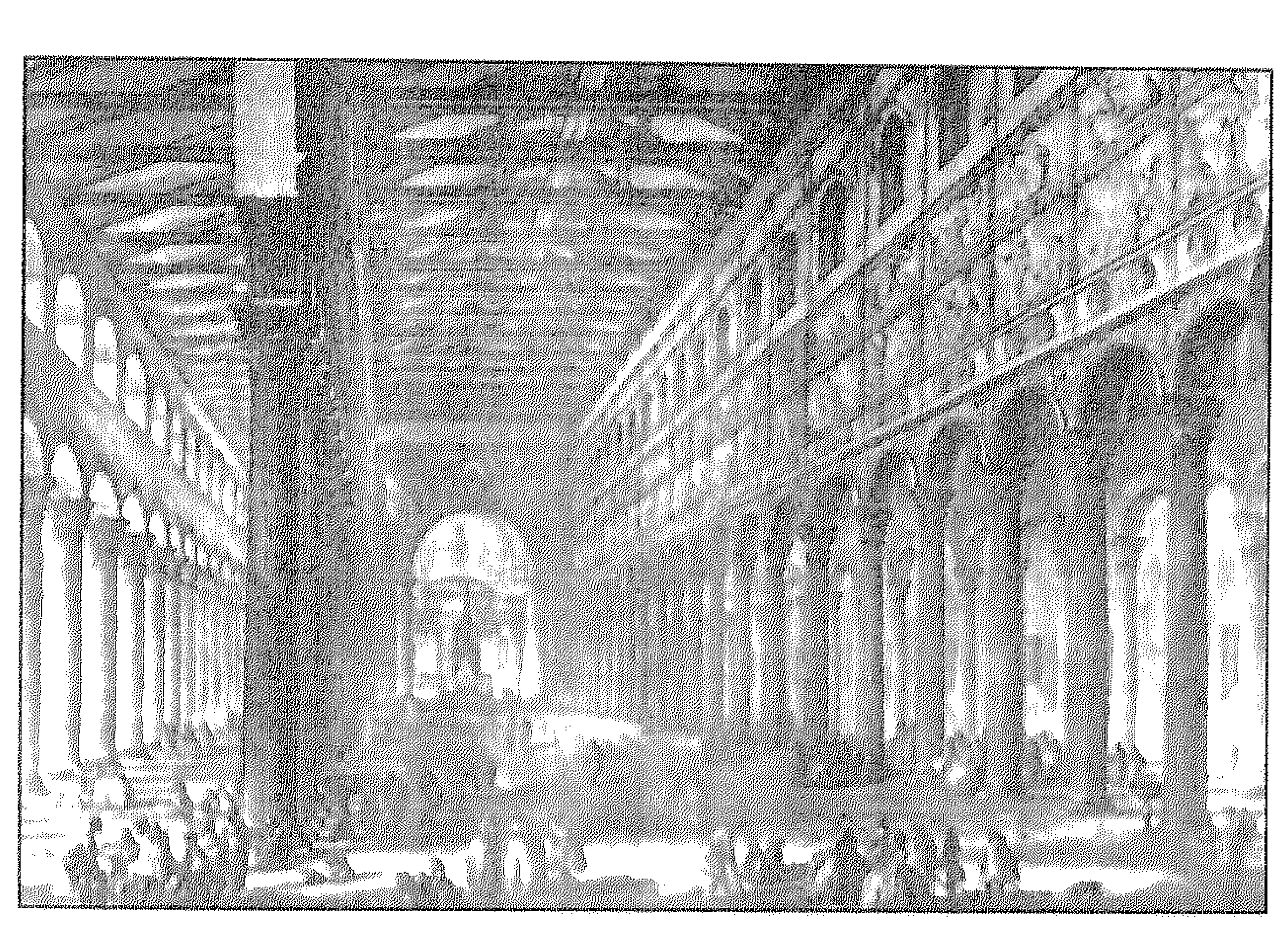


ضئيل، ويعد هذا دليلا قاطعا على الفروق الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، بين هارون الرشيد وشارلمان، هارون الرشيد الذى قال عنه المؤرخ الإيطالى بيرتولينى «أعلم المتعلمين» وشارلمان الذى بشهادة مؤرخه إينهارد كان يحاول أن يتعلم كيف يكتب اسمه.

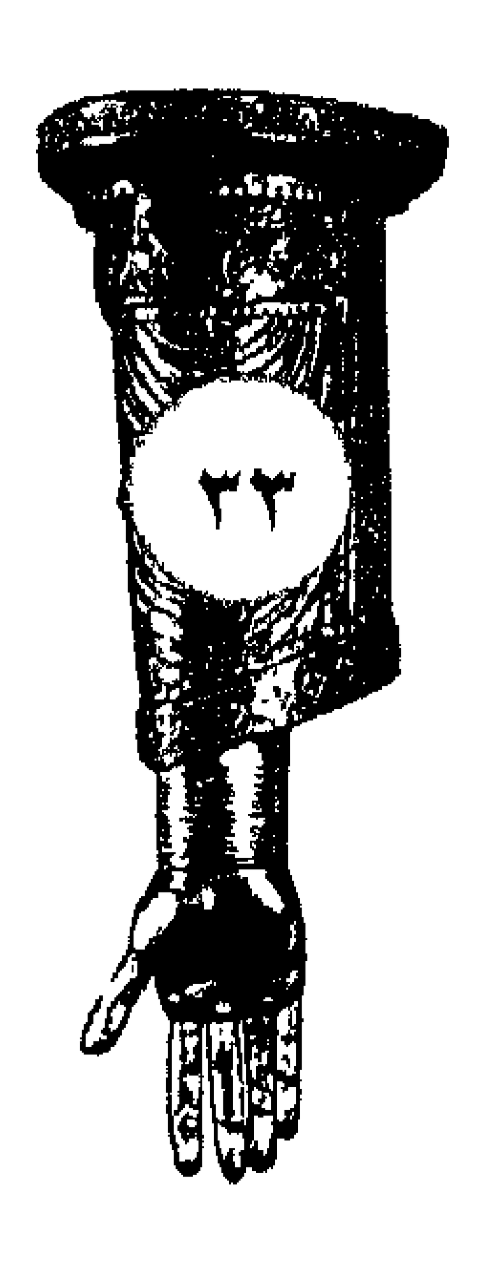
أما عن **طعام شارلمان وشرابه**، فقد كان شارلمان معتدلا فى تناول الطعام بشكل عام، ولكن لم يكن من السهل عليه كبح جماح رغبته فى الطعام، حتى أنه كان يشتكى دائما من أن الصيام يضر بصحته، وكان شارلمان يؤثر اللحم المشوى على سائر أنواع الطعام، حتى أنه لم يأبه لنصيحة الأطباء حينما طلبوا منه التخلى عن تناول اللحوم المشوية واستبدالها باللحوم المسلوقة حفاظا على صحته ولكن لم يستمع إلى نصحهم.

كان شارلمان يستمع ـ كما يروى إينهارد ـ أثناء الطعام إلى شىء من القراءة أو الموسيقى، وكانت موضوعات هذه القراءات قصصا ومآثر الزمن الغابر. وكان شارلمان معتدلا للغاية فى تناول الشراب والخمر بصفة خاصة، فيذكر إينهارد «قلما سمح لنفسه بتناول أكثر من ثلاثة أقداح أثناء وجبة الطعام». ويذكر فى موضع آخر «أنه كان يمقت السكر فى أى فرد، وأكثر ما يمقته فى نفسه أو فى أحد أفراد بيته».

أما عن **ملابس شارلمان** فقد اعتاد شارلمان ارتداء اللباس الوطنى أى الفرنجى، وكانت ثيابه عبارة عن قميص وسروال من الكتان، يرتدى فوقهما جلبابا من الصوف ذا أهداب من الحرير، وجوربين طويلين بشريطين مربوطين، يستران ساقيه، وحذاء يكسو قدميه، وكان يحمى كتفيه وصدره فى الشتاء بمعطف محبوك على مقدار جسمه مصنوع من الجلد، وكان يلقى فوق هذه الملابس كلها عباءة زرقاء.



كنيسة القديس بطرس القديمة - بازيليكا - من الداخل



أما فى أيام الأعيــاد الكبيرة، فكان شارلمان يرتدى الثـياب المطرزة والأحذية المزينة بالأحجــار الكريمة، أما عــباءته فقد كــانت ذات حلية ذهبيــة، ويظهر على رأسه إكليل من الذهب واللآلئ.

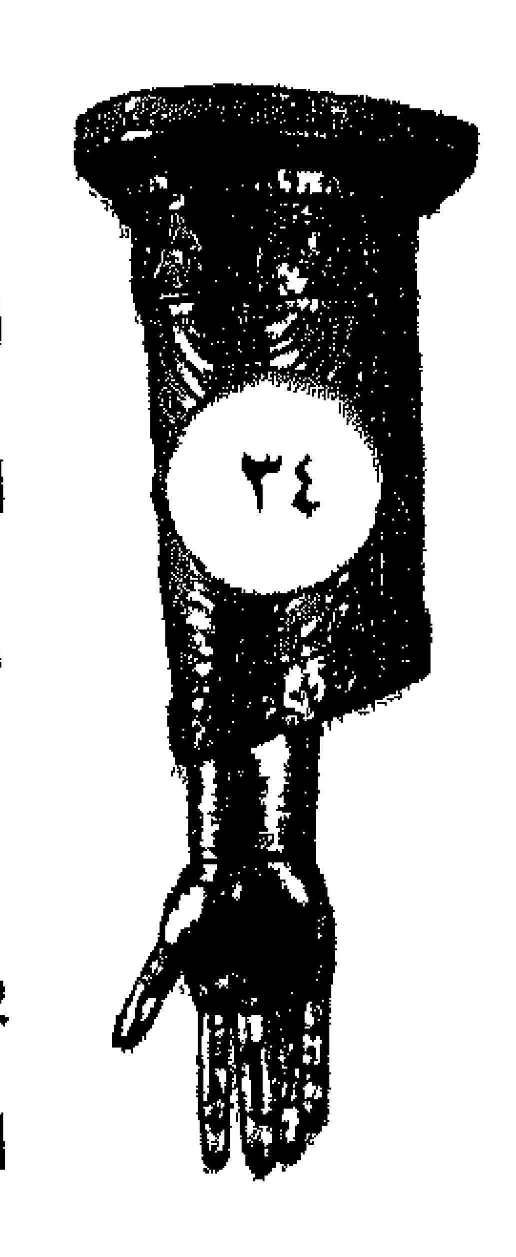
كان شــارلمان يزدرى الملابس الأجنبية ولا يســمح لنفســه بارتداء ثوب منها مهــما كان جــميلا، ولم يرتد هذه الملابس إلا مــرتين فى حياته وفى مــدينة روما وكانت الأولى تلبية لطلب البابا هادريان (٧٧٢-٧٩٥م) والثــانية لإرضاء البابا ليو الثالث (٧٩٥-٨١٦م) خليــفة هادريان وحــينما توج إمبــراطورا على يديه فى ليلة عيد الميلاد من عام ٨٠٠م، حيث ارتدى العباءة الرومانية والخف الرومانى والسترة الطويلة.

أما عن **حياة شارلمان الخاصة** فقد تزوج عدة مرات، فى المرة الأولى تزوج من إحدى بنات ملك اللمبارديين ويدعى ديسيدريوس، استجابة لرغبة والدته برثراده Bertherada، غير أنه طلقها فى نهاية العام الذى تزوجهــا فيه لسبب غير معــروف، وربما لأنها كانت لا تنجب أولادا إذ كانت مصــابة بمرض ما. ثم تزوج شــارلمان بعد ذلك من هــلدجارد Hildegard فى عام ٧٧١م، وهى امرأة ذات منشأ نبيل، ومن أصل سوابى، وكانت فى الثلاثين من عــمرها حينما تزوجها شارلمان، ورزق منهــا بثلاث بنــات هن: هرود رود، وبرثة، وجيــزلة، وثلاثة أولاد وهم: شــارل، وبيبن، ولويس، ثم تزوج شارلمــان زوجته الثــالثة فاســتراده Fastrada وهى امرأة جــرمانيــة وأنجب منها اثنتين. وبعد موتهــا تزوج شارلمان من ليوتجارد Liutgard وهى امرأة ألمانية ولم تنجب له أولادا، وتوفيت فى عام ٨٠٠م، واتخذ بعد موتها ثلاث خليلات.

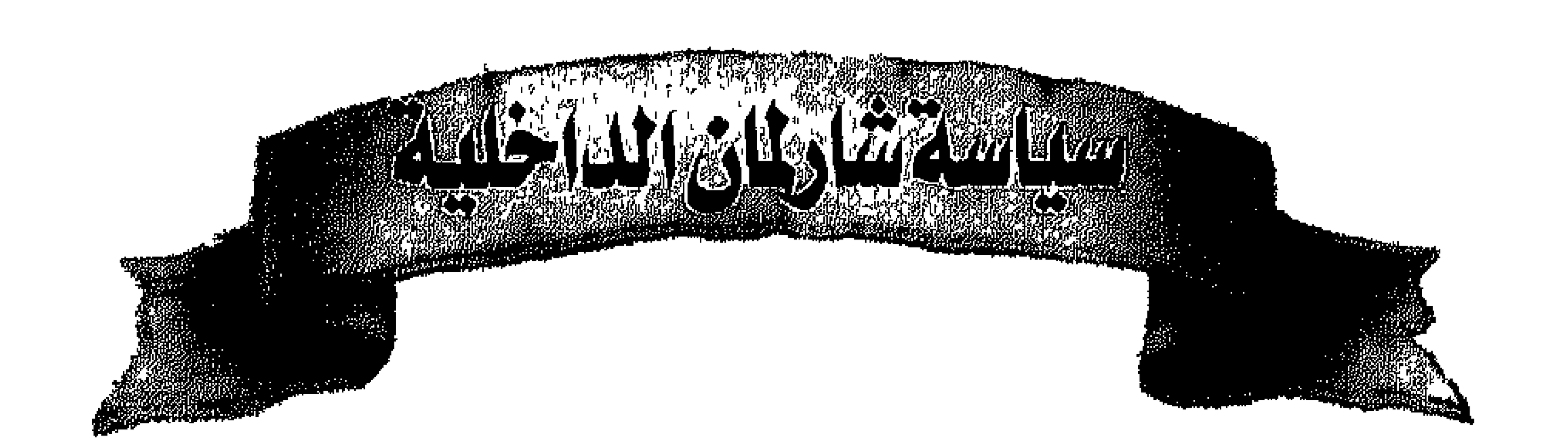
أما عن تربية الأبناء، فقــد وضع شارلمان خطة ترمى بالدرجة الأولى إلى تعليم البنين منهم والبنات الفنون الحرة Liberal Arts التى كانت موضع الاهتمام الشخصى لشارلمان. وكان الذكور من أبناء شارلمان ـ وفــقا لعرف الفرنجــة ـ يتعلمون الفــروسية، ويتدربون على فن الحــرب ورياضة الصيد، وذلك عندما يسمح لهم سنهم بذلك، فى حين كــان على البنات أن يعودن أنفسهن القيام بأعمال الخياطة والحياكة واستعمال المغزل، وذلك لكى لا يألفن الخمول وحياة الكسل والبطالة كما قوى شارلمان فيهن الإحساس بالفضيلة.

كان شارلمان حريصا أشد الحرص على الاهتمام بأبنائه وبناته وحسن توجيههم، فإن كان فى المنزل شاركــوه طعامه، وإن قام برحلة كــانوا معه، فــيركب الذكور إلى جانبــه، والبنات فى آخر موكبه، وقد أحاط بهن عدد من حراسه المكلفين بحراستهن.

ورغم ما عرف عن شارلمان من رجاحة العــقل وتميز بالصبر وهدوء النفس إلا أنه لم يستطع أن يغلب عواطفه الجياشــة، فقد أخرجه الحزن ـ كما يذكر إينهــارد ـ عن هدوئه وأبكاه عندما فقد اثنين من أولاده البنين وواحدة من البنات وهى كبرى بناته هرودرود.



أما عن **هوايات شارلمان** فيأتى فـى مقدمتهـا التدرب المستمـر على ركوب الخيل والصيد تمشيا مع التـقاليد القومية، كما كان يستمتـع بأبخرة الينابيع الطبيعية الدافئة، وغالبا ما كان يمارس السباحة، بل كان يجيدها، فلا يستطيع أحد أن يبزه فيهـا كما يروى إينهارد، ولهذا السبب قـام شارلمان ببناء قصره فى عاصـمته إكس لاشابل، حيث عاش هناك بشكل دائم خلال السنوات الأخـيرة من حياته. كذلك يذكر إينهـارد أن شارلمان لم يتعود دعـوة أولاده وحدهم لحمامه، وإنمـا كان يدعو النبلاء وأصدقاءه أيضا، وكان يدعو بين الحين والآخر مجموعة من حاشيته وحتى من حراسه لهذا الحمام.



نظام الحكم والإدارة فى عهد شارلمان:

اتصف نظام حكم شـارلمان بالبسـاطة المتناهيـة، فكان يدير دفة البـلاد من خلال عـدد من الموظفين الذين عرفهم بلاطه ومنهم كبير الأساقفة ورئيس القساوسة ويتوليان كل ما يتعلق بالكنيسة من الأمور، والمفـروض أنهما يشرفـان على سلطة الإمبراطور فى شغل الوظائف، ويـفصلان فى الأمور السهلة دون الـرجوع للإمبراطور. ومن وظائف البلاط أيضـا وظيفة (الحجـاب) أو كونتات القصر، فكان لكل شعب من الشعوب التابعة لدولة الفرنجة كونت، يشرف على أمور شعبه، وكل من له شكوى أو مظلمـة عليه أن يتصل بالكونت التـابع له، وبذلك لا يصل إلى ديوان الملك إلا المسائل بالغة الصعوبة.

كذلك تمت إدارة دولة الفرنجة عن طريق عدد من الدواوين، من أهمها ديوان الرسائل الذى يجرى فيه تحرير القوانين والعهود، وفقا لصيغ معروفة، وصاحب ديوان الرسائل هو المسئول الأول عنه.

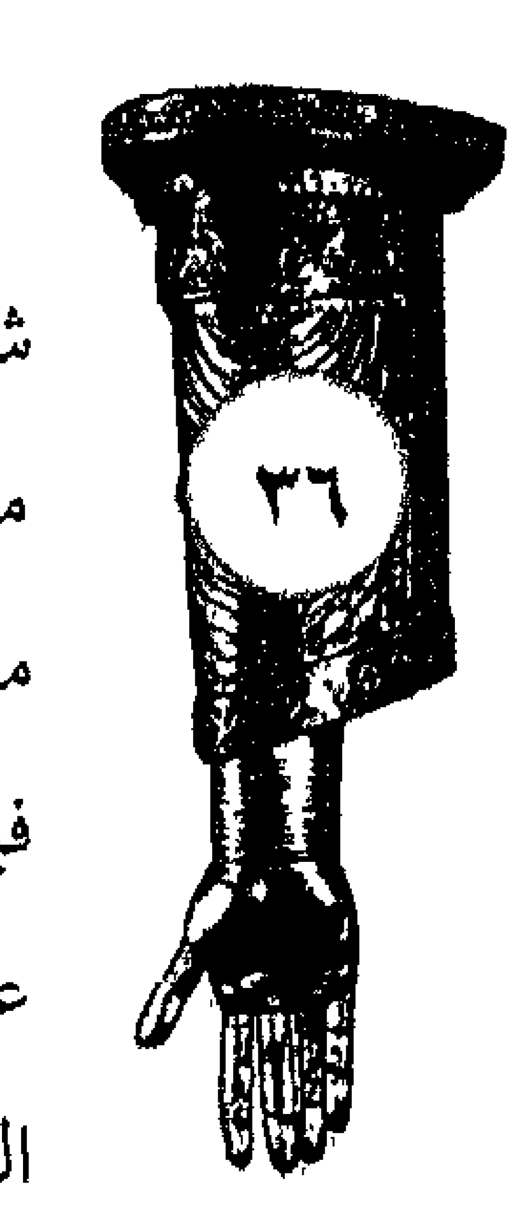
ورغم أن شارلمان ركـز السلطة فى أيدى عـدد من الموظفين الكبـار، إلا أنهم كانوا مـجرد كتاب وأمناء، لم يجعل لهم شـارلمان مطلق الحرية فى التصرف، بل أغفلهم وصار يـستمع بنفسه إلى كل شىء ويفصل فى كل الأمور.



تصوير جدارى - العصر الكارولنجى

وقام مجلس البلاط بدور هام فى إدارة شئون دولة الفرنجة، وهو مجلس أرستقراطى فى تشكيله فهو يتألف من الزعماء وهؤلاء الزعماء ليسوا إلا موظفين بالإمبراطورية فمنهم أساقفة، ورؤساء أديرة، وكونتات ودوقات، وأمراء أطراف، والعلمانيون منهم لا يتولون وظائفهم إلا بمشيئة الإمبراطور وإرادته، ولم يقم مجلس البلاط بشىء من أعمال التشريع، ولكنه يقوم بعرض الإصلاحات الواجبة ويقوم بمناقشتها، وكان شارلمان هو الروح المحركة لهذا المجلس، وهو صاحب الكلمة الأخيرة فيه.

برج كنيسة سان نيكولا من الداخل - مدينة بيزا - العصر الكارولنجى

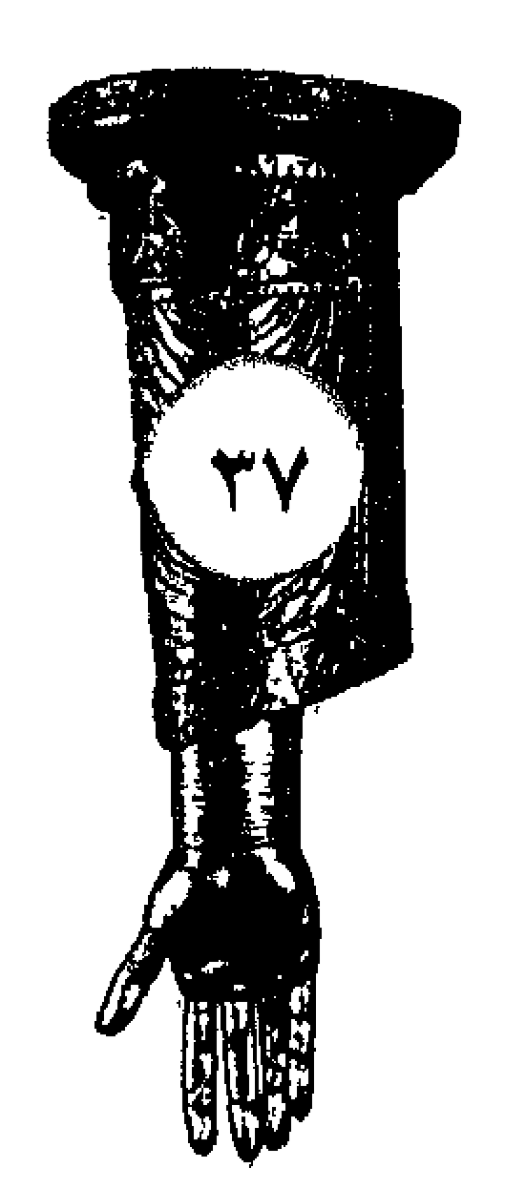


وكان عون شارلمان أيضا فى إدارة شئون البلاد عدد من المستشارين، وكان شارلمان لا يطيق أن يبقى دون أن يكون بصحبته اثنان أو ثلاثة من أحكم مستشاريه، يستشيرهم فى جميع أوقاته. ومن حسن الحظ أنه توافر عنده مستشارون مستنيرون، ومن أهمهم الكوين الذى تلقى على يديه المواعظ والنصائح فيما يتعلق بنظام الحكم، ومنها أن حكم الإمبراطورية مسئولية جسيمة ألقيت على عاتقه، وأن عليه أن يتوخى العدل، ويحرص على أن تسود العدالة داخل البلاد التى فتحها.

قسم شارلمان إمبراطوريته الواسعة إلى أقسام إدارية منها الكونتيات فى الداخل والماركيات على الحدود والأطراف، أما الكونتيات فكان يشرف على كل منها كونت يعتبر نائبا عن شارلمان نفسه؛ ولذلك فهو يتمتع بكل السلطات سواء أكانت إدارية أم قضائية أم مالية أم عسكرية، ومن مهام الكونت تسليم جميع ما يحصله من أموال الضرائب، وإعلان المراسيم والأوامر الملكية على الناس،كما يقوم بالإشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين اللازمين للسلطة المركزية، كما كان على كل كونت أن يذهب فى نهاية كل عام إلى القصر الملكى فى العاصمة إكس لاشابل، ويظل بها عدة أسابيع ليسلم ما فى عهدته من أموال، فضلا عن حضور المجلس العام أو مجلس البلاط.

ويساعد الكونت فى أداء مهامه عدد من المساعدين يقوم هو باختيارهم ولكن بشرط موافقة الإمبراطور شارلمان عليهم، أما عن الأقسام الإدارية الواقعة على الحدود أو فى الأطراف والتى يطلق عليها اسم (الماركيات) فكان حاكمها يلقب بالمركيز ويتمتع بسلطات أوسع وأكبر من سلطات الكونت.

على أن أهم إصلاح إدارى أدخله شارلمان كان زيادة أهمية المبعوثين الملكيين واستخدامهم استخداما منظما، وكان هؤلاء المبعوثون نوابا عن شارلمان، يوفدون من القصر الملكى ليحملوا تعليمات الملك وأوامره إلى الأقاليم والحكام، ويجمعون أخبار هؤلاء الحكام وتلك الأقاليم ويعرضونها على الملك فى العاصمة، ويفتشون عليهم لضمان حسن سير الإدارة. يبدو أن كثرة الشكاوى من مختلف أنحاء الإمبراطورية دفعت شارلمان إلى العمل على تقوية نظام المبعوثين ليصبح أداة فعالة فى القضاء على أسباب تلك الشكاوى، ومن أجل ذلك قسم شارلمان الإمبراطورية فى عام ٨٠٢م إلى دوائر، وبعث إلى كل دائرة منها اثنين من المبعوثين؛ أحدهما من رجال الدين والثانى من رجال الإدارة ليضمن رعاية مصالح الكنيسة والدولة معا. ودرج شارلمان



على نقل هؤلاء المبعوثين من دائرة إلى أخرى كل عام قبل أن تصبح لهم مصالح فى الدائرة وعلاقات مع أهلها؛ وحتى يكونوا أكثر حيادا كما كان يرسل إليهم فى كل سنة تعليمات دقيقة تتعلق بالأمور التى ينبغى عليهم الإلمام بها. وبهذه الطريقة ضمن شارلمان قيام المبعوثين بواجبهم فى التفتيش على الكونتات والأساقفة تفتيشا دقيقا.

أما عن مهام هؤلاء المبعوثين فهى عديدة منها سماع شكاوى أهالى الإقليم ضد الكونتات، وإلزام الكونت بتوخى العدالة فى إقليمه، وكذلك مصاحبة الأساقفة فى زيارات دورية مفاجئة للتفتيش على رجال الدين، ومعاقبة المهملين منهم، هذا فضلا عن التفتيش على الضياع التى أوقفها الملك على الأغراض الخيرية، والتأكد من سلامة أوضاعها واستخدامها فى الأغراض المخصصة لها. كما كان على المبعوثين التأكد من سلامة إجراءات الخدمة العسكرية، ومدى حرص الكونتات على تنفيذ أوامر الملك بخصوصها، وأخيرا كان على المبعوثين القيام بجولات داخل الإقليم مرة كل ثلاثة أشهر، وعقد محكمة استئنافية يحضرها الكونتات والأساقفة للنظر فى أمور الإقليم ومعاقبة المخالفين.



وجه شارلمان عنايته إلى الاهتمام بالأحوال الاقتصادية فى دولة الفرنجة من زراعة وصناعة وتجارة؛ أما عن الزراعة فيلاحظ اختفاء الضياع الصغيرة إذ تحولت إلى ضياع كبيرة، وحلت هذه الضياع الكبيرة محل المدن كمراكز للنشاط الاقتصادى، وأصبحت هذه الضياع محور النشاط الاقتصادى فى عصر شارلمان، مما جعل ذلك النشاط مرتبطا بالزراعة وإنتاج الأرض إلى حد كبير، وامتازت هذه الضياع الكبيرة بأنها تكفى نفسها بنفسها، فبدلا من أن تحاول إنتاج فائض تبيعه فى الأسواق الخارجية، عملت بسياسة الاكتفاء الذاتى، أى اكتفت بإنتاج ما يلزم الضيعة وأهلها، وترتب على هذا النظام ضعف ارتباط الضيعة بالعالم الخارجى من ناحية، وربط أهل الضيعة مصيرهم بالأرض التى يعيشون عليها من ناحية أخرى.

وقد امتلكت الأديرة نسبة كبيرة من هذه الضياع الواسعة، أما شارلمان فكان أعظم مالك للأرض فى إمبراطوريته، وقد عنى بضياعه وبأرضه عناية كبيرة حتى غدت مزارعه نموذجية تفيض بالخيرات، كذلك شجع شارلمان كبار الملاك والأمراء على العناية بأرضهم الزراعية، والاهتمام بشئون الزراعة ومشروعات الرى كشق الترع، وحفر القنوات، وتقوية الجسور وغيرها من مشروعات الرى والزراعة.

أما الصناعة، فقد تركزت فى عصر شارلمان داخل الأديرة وخاصة دير كوربى الذى نشطت به عدة صناعات كالحدادة والنجارة وصناعة الأسلحة ودبغ الجلود وغيرها، وانتشرت الصناعة أيضا فى الضياع والقرى إلى جانب الأديرة، وعرف عصر شارلمان البذور الأولى لنظام نقابات أصحاب الحرف، تلك النقابات التى تنظم شئون الحرفيين والصناع وترعى مصالحهم.

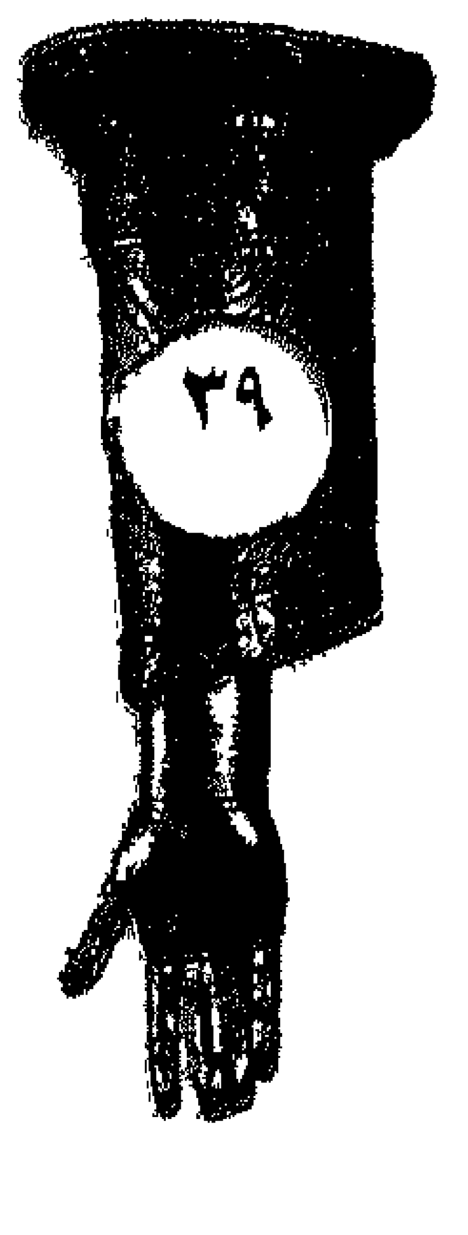
نشطت حركة التجارة فى عهد شارلمان بنشاط الصناعة ووفرة الإنتاج الصناعى، هذا فضلا عما قام به شارلمان من إجراءات ساعدت على انتعاش حركة التجارة ونشاطها ومن هذه الإجراءات:

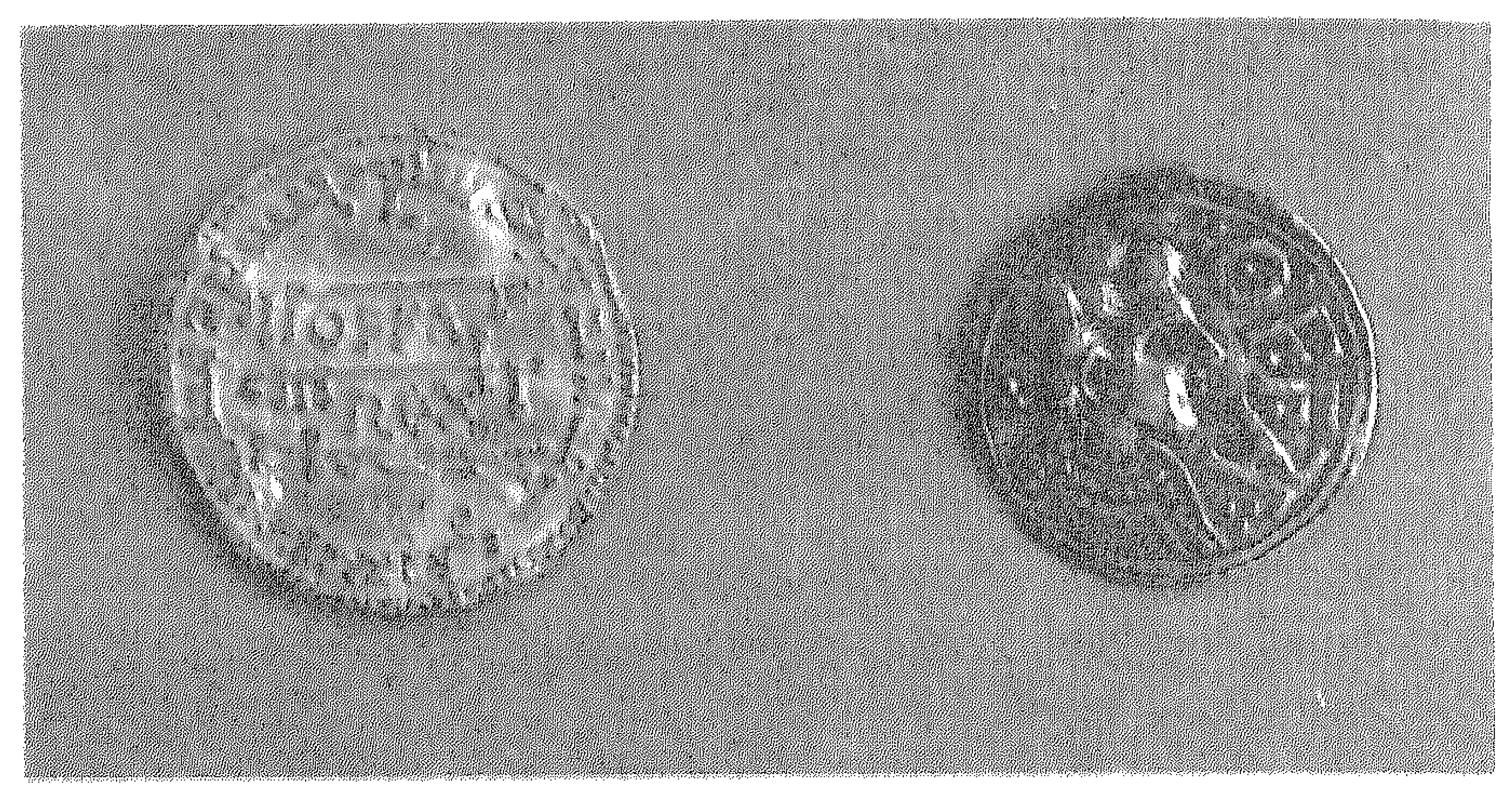
أولا: إيجاد نظام موحد للموازين والمقاييس، ولأول مرة فى تاريخ مملكة الفرنجة، مع تحريم التلاعب بالمكاييل والموازيين ومعاقبة المخالفين.

ثانيا: تنظيم النقود والعملة المتداولة، والحد من عدد دور الضرب المرخص لها بسك العملة، والتعامل بالعملة الملكية دون غيرها من العملات.

ثالثا: تحريم الربا، وتحديد أثمان السلع والغلال، والحد من الغش التجارى.

ووجه شارلمان عنايته أيضا إلى الاهتمام بالطرق التجارية، والإكثار منها والمحافظة على سلامتها وتوفير الأمن والأمان لسالكيها، فاهتم بالطرق البرية والنهرية والبحرية، واتخذ إجراءات مشددة ضد من يهاجمون التجار ويعتدون عليهم، أو





عملة فضية فرنسية استخدمت فى إنجلترا سنة ٧٥٧/٧٩٦م

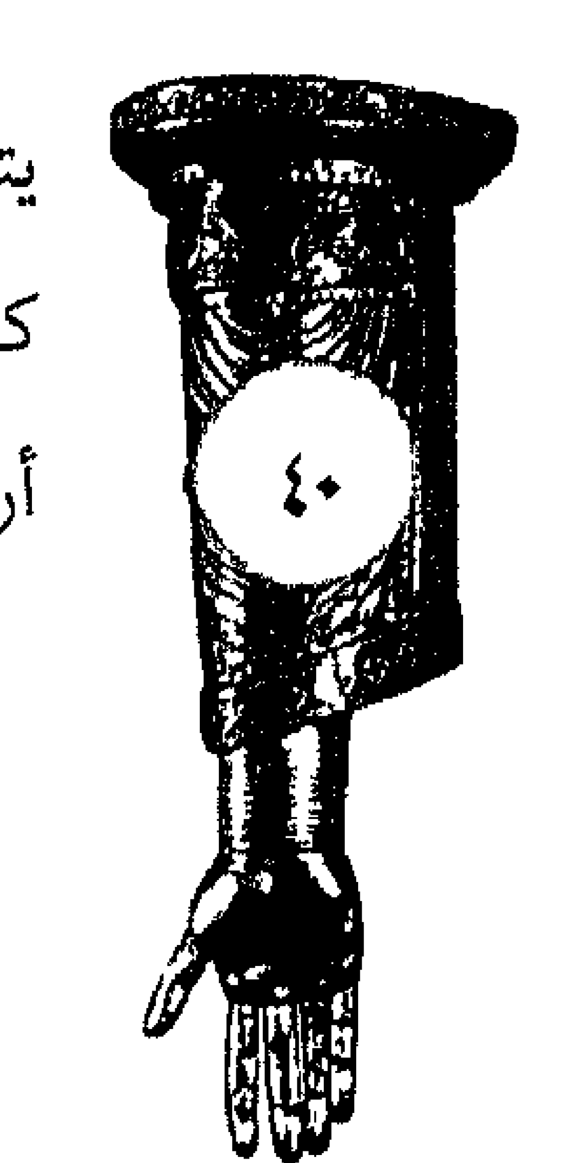
دينار عباسى ذهبى وجد فى روما، استخدم فى سنة ٧٥٧/٧٩٦م

يفرضون عليهم ضرائب غير مشروعة عند عبور الطرقات والجسور، مما أدى إلى استقرار الأمن والنظام وتشجيع التجار.

حرص شارلمان على حماية التجار وتوفير أسباب الراحة لهم وذلك عن طريق إقامة الفنادق والخانات لهم على طول الطرق التجارية، كما أقام على حدود مملكة الفرنجة تسعة مراكز لحماية تجار الفرنجة من أعداء مملكتهم ولمنع بيع الأسلحة لهؤلاء الأعداء .

أما عن أهم مراكز التجارة فى عهد شارلمان فكانت مدينة مينز Mainz بين غاليا (فرنسا الحالية) وألمانيا، والتى حرص شارلمان على أن تكون مركزا رئيسا للتجارة، وذلك بإقامة عدد من المشروعات التى تحقق هذا الغرض، ومنها إقامة جسر خشبى على الراين عند مينز، وقد استغرق بناء هذا الجسر عشر سنوات.

شهد عصر شارلمان انتعاشا للعلاقات التجارية بين دولة الفرنجة وبلاد الشرق، وذلك بفضل العلاقات الطيبة التى ربطت شارلمان بالخليفة العباسى هارون الرشيد من ناحية ووجود الجاليات المسيحية فى مصر والشام وغيرها من بلاد الشرق من ناحية أخرى. وكانت أهم صادرات الشرق إلى دولة شارلمان المنسوجات والأقمشة الملونة والمزركشة والملابس الحريرية والمصنوعات الجلدية والعطور والأعشاب الطبية والتوابل وغيرها فى مقابل الحبوب والخمور والزيوت والجوخ الثمين. وتجدر الإشارة إلى أن اليهود لعبوا دورا كبيرا فى عصر شارلمان فى تقدم حركة التجارة، إذ لم



يتعرضوا فى عصره للضغط والقيود، حقيقة أنه حرم عليهم امتلاك الأراضى ولكن كان هذا دافعا لهم للاشتغال بالتجارة والأعمال المصرفية التى جنوا من ورائها أرباحا طائلة.

الحركة العلمية والفكرية فى عهد شارلمان

اهتم شارلمان اهتماما كبيرا بالعلم واللغة، فقد بدأ بوضع قواعد النحو الخاصة بلغته الوطنية وهى الفرنجية، واستبدل بالأسماء اللاتينية أسماء وطنية وضعها بلغته القومية. كما أمر بتدوين المآثر القديمة الخاصة بالجرمان، والتى تمجد أعمالهم وأعمال ملوكهم القدامى وحروبهم من أجل أن تتعرف عليها الأجيال القادمة.

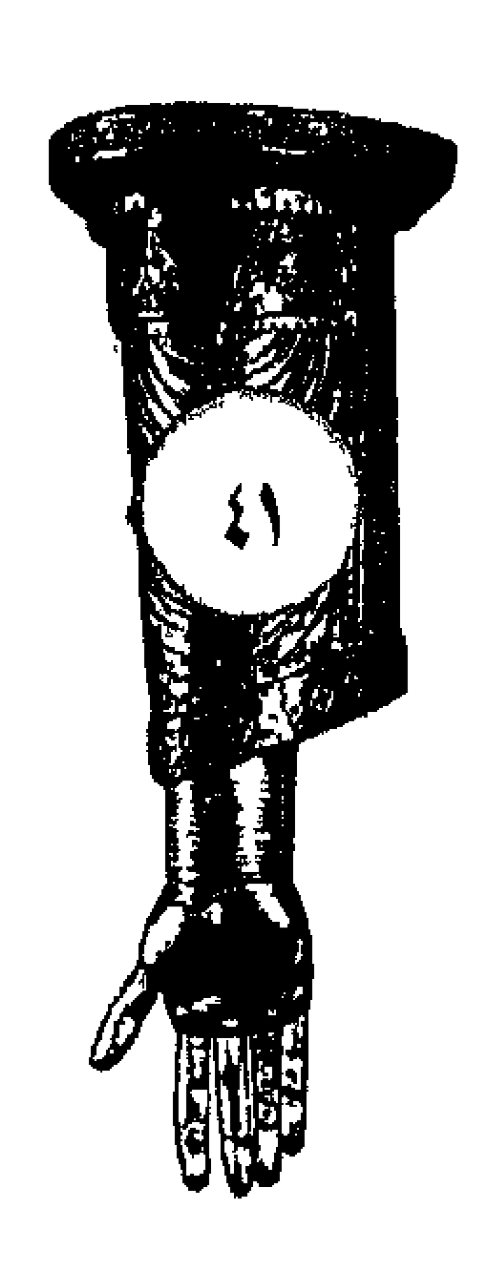
شهد عصر شارلمان نهضة علمية كبيرة، من أهم مظاهرها:

مدرسة القصر:

وقد أقامها شارلمان داخل قصره الإمبراطورى فى عاصمته إكس لاشابل (آخن)، وكان هو أحد تلاميذها، وكانت أشبه بمدرسة متنقلة، تصاحب الإمبراطور شارلمان فى حله وترحاله، والتحق بهذه المدرسة أولاد النبلاء والموهوبين من أولاد الفقراء، وكان طلابها النجباء يعينون فى وظائف البلاط الشاغرة، وكان الكوين من أشهر من تولوا رئاستها.

اهتم شارلمان أيضا بإنشاء المدارس بمختلف الأسقفيات والأديرة وأوعز إلى رجال الدين فى مختلف أنحاء دولته بضرورة تعلم القراءة والكتابة والانخراط فى سلك التعليم. وترجع أهمية هذه المدارس إلى أنها حفظت اللغة اللاتينية من التحريف، وعملت على تصحيح نسخ الكتاب المقدس، والبعد عن الأخطاء التى انتشرت فى هذا العصر.

ووجه شارلمان عنايته نحو إعادة نسخ الكتب اللاتينية واليونانية سواء الأدبية منها أو كتب الطقوس الدينية، مما كان له أثر كبير فى حفظ هذا التراث، وعدم تحريفه أو تشويهه، وهو الأمر الذى استفادت منه الحضارة الأوروبية على مر الأجيال، واهتم شارلمان كذلك برعاية العلوم والفنون فيذكر إينهارد «أنه رعا بحماسة بالغة الفنون الحرة، فخص أولئك الذين يعلمونها بقدر كبير من الاحترام، وأنعم عليهم بكثير من التقدير».



ولم تشمل النهضة الأدبية علما واحدا من العلوم، بل شملت كل العلوم فلسفية وتاريخية وأدبية، فهى نهضة شاملة عالجت مختلف ألوان المعرفة التى عرفت فى ذلك العصر، وإن كانت قد اكتسبت طابعا دينيا نظرا للعلاقة التى ربطت شارلمان بالكنيسة الغربية والبابوية فى ذلك الحين.

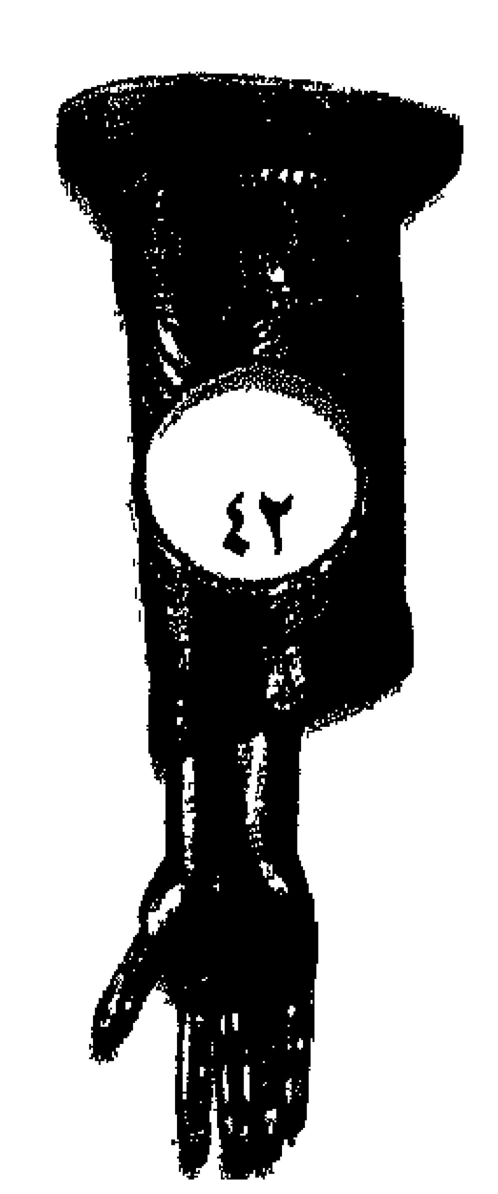
ومن أهم أقطاب النهضة العلمية وأعلامها فى عهد شارلمان الإنجليزى الكوين (٧٣٥-٨٠٤م) الذى ولد فى مدينة يورك فى شمال إنجلترا سنة ٧٣٥م وكانت من أهم مراكز الفكر فى إنجلترا، وتلقى الكوين تعليمه فيها، ودرس كتابات آباء الكنيسة والعلوم الكلاسيكية، ثم أصبح رئيسا لدير مدينة يورك، ثم استقدمه شارلمان من إنجلترا إلى بلاطه فى إكس لاشابل عام ٧٨٢م ليشرف على الحركة العلمية فى مملكة الفرنجة، وألف الكوين عددا من الكتب فى النحو والبلاغة واللاهوت، كما راجع الكتاب المقدس ومجموعة كتب الصلوات، ومن ثم فقد كان الكوين بحق بمثابة المستشار الأول لشارلمان فى كافة الشئون العلمية بل والسياسية، وظل الكوين وفيا لشارلمان حتى توفى فى عام ٨٠٤م.

ويعد المؤرخ المشهور بولس الشماس من أقطاب الحركة العلمية فى عهد شارلمان، وهو لمباردى الأصل، ودعاه شارلمان بعد سقوط مملكة اللمباردين ليفيد مدرسة القصر بعلمه فى ميدان التاريخ والنحو، واتجه بولس الشماس (٧٢٥-٧٩٧م) فى أواخر حياته إلى دير مونت كاسينو بإيطاليا حيث عكف على تأليف كتابه المشهور «تاريخ اللمبارديين» وهو الكتاب الذى أكسبه لقب «أبو التاريخ الإيطالى»، وقد قام بتأليفه بناء على تكليف من شارلمان.

أما عن إينهارد ـ مؤرخ شارلمان ـ فهو فرنجى الأصل، ولد فى عام ٧٧٠م فى منطقة نهر الماين Maine وهى إحدى المقاطعات الشرقية فى مملكة الفرنجة.

تلقى إينهارد تعليمه الأول فى دير القديس بونيفاس فى فولدا Fulda وكان هذا الدير هو المركز الرئيس للتعليم والمعرفة فى دولة الفرنجة فى ذلك الحين. وسرعان ما اكتشف مقدم دير فولدا إمكانات إينهارد ومواهبه لذلك اصطحبه فى عام ٧٩١م إلى العاصمة إكس لاشابل، حيث أقنع شارلمان بضرورة الإفادة من علم إينهارد وذكائه وثقافته وحكمته، ومنذ ذلك الحين دخل إينهارد فى خدمة شارلمان، ولمع نجمه فى مدرسة القصر بسرعة نتيجة مثابرته وتنوع معارفه وعمقها.

ربطت الصداقة بين شارلمان وإينهارد، وهذه الصداقة جعلت من إينهارد شخصية متميزة فى البلاد، فقد أمسى سكرتيرا خاصا لشارلمان، ومستشارا ثقة له فى الشئون السياسية والعلمية والعملية وغيرها، فمن الناحية السياسية عمل إينهارد سفيرا لشارلمان لدى البابا ليو الثالث بابا روما عام ٨٠٦م؛ كما شارك فى صنع القرار السياسى، إذ اختاره زعماء الفرنجة متحدثا بلسانهم عند



مناقشة مسألة تعيين لويس التقى ابن شارلمان خلفا له. أما فى المجال العلمى، فقد عمل إينهارد مستشارا علميا لشارلمان، كذلك قام بالتدريس فى مدرسة القصر إلى جانب عدد من الأعلام البارزين ومنهم الكوين وبولس الشماس وبطرس البيزى وغيرهم، وعمل إينهارد أيضا مهندسا معماريا لشارلمان، وأشرف على الطرق والمبانى والجسور فى مملكة الفرنجة، بل ويقال أن إينهارد أشرف شخصيا على بناء القصر الملكى فى العاصمة إكس لا شابل.

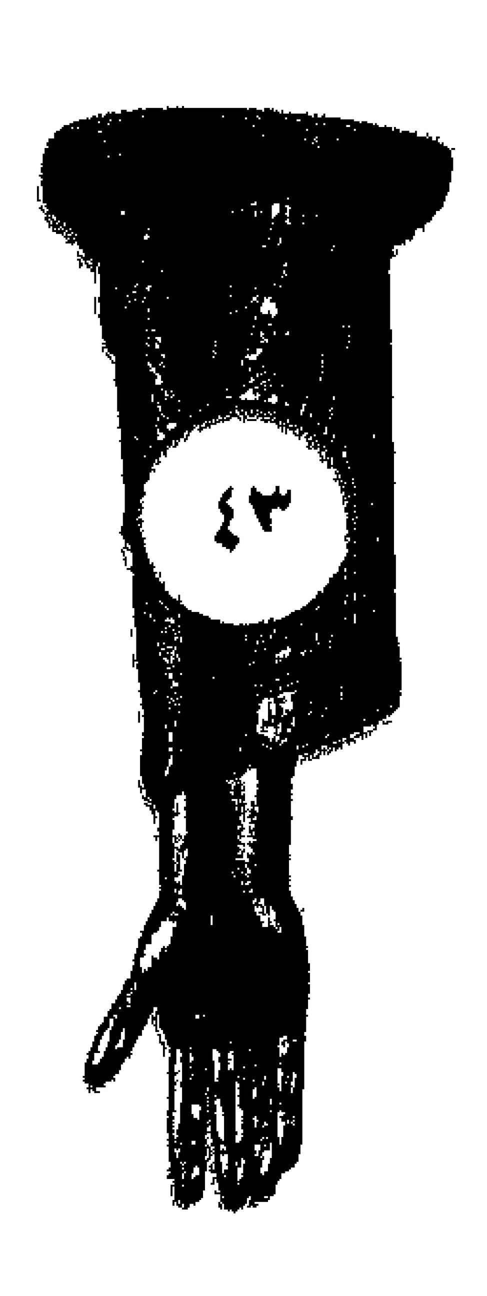
ظل إينهارد محافظا على صداقته لشارلمان حتى بعد وفاة الأخير ٨١٤م ولأبنائه من بعده، فقد عمل مستشارا للويس التقى (٨١٤-٨٤٠م) ابن شارلمان، وأمينا لسره، ومربيا ومدرسا لابنه لوثر خلال الفترة (٨١٧ - ٨٢٢م) وحوالى عام ٨٣٠م اعتزل إينهارد كل مناصبه، وغادر العاصمة إلى الدير الذى بناه على نهر الراين مؤثرا حياة الرهبانية، ومن أشهر مؤلفات إينهارد كتابه عن سيرة شارلمان Vita Karoli، وألفه إينهارد بعد وفاة شارلمان وفى أيام ابنه لويس التقى.

ويعد إنجلبرت زميل إينهارد فى الدراسة من أعلام النهضة العلمية كذلك، وقد عمل إنجلبرت كاتب سر شارلمان، ورئيس قساوسته بحكم انتمائه للطائفة الدينية، وقد وصل إلى هذه المكانة بفضل نبوغه فى العلم والدراسة، فضلا عن مكانته الأدبية التى جعلت معاصريه يطلقون عليه اسم «هومر».

وإلى جانب هذه الكوكبة من العلماء والأدباء والمؤرخين لمعت أسماء بطرس البيزى وكلمنت ودونجال وغيرهم من أقطاب النهضة العلمية فى عصر شارلمان، ومن الشعراء الشاعر الأسبانى ثيودولف وهو من القوط الغربيين، استدعاه شارلمان من إسبانيا إلى بلاطه، ويعتبر ثيودولف أرقى شعراء عصره، ومن أشهر قصائده قصيدة بعنوان «نصيحة إلى القضاة» تتألف من تسعمائة وستة وخمسين بيتا من الشعر، وإلى جانب ما اشتهر به ثيودولف فى مجال الشعر، فقد عمل كسفير وأسقف لمدينة أورليان.

وقد أغرى هؤلاء العلماء والشعراء على قصد بلاط شارلمان ما قدمه لهم من عطايا جزيلة، فضلا عما شملهم به من عطف ورعاية وحماية.

شهد عصر شارلمان إلى جانب النهضة العلمية نهضة فى مجال التشريع، وأهم ما قام به شارلمان فى هذا الصدد تسجيل القوانين الجرمانية والعادات المتوارثة فى شكل مجموعة قانونية تضمنت بعض القواعد العامة كى يسترشد بها الحكام فى إصدار أحكامهم بين مختلف القبائل التى كانت تخضع لشارلمان، فيروى إينهارد: «اكتشف شارلمان أن قوانين شعبه شديدة النقص؛ ولهذا قرر أن يضيف إلى هذه القوانين ما يسد ما فيها من نقص، وأن يسوى ما فيها من تناقضات، وأن

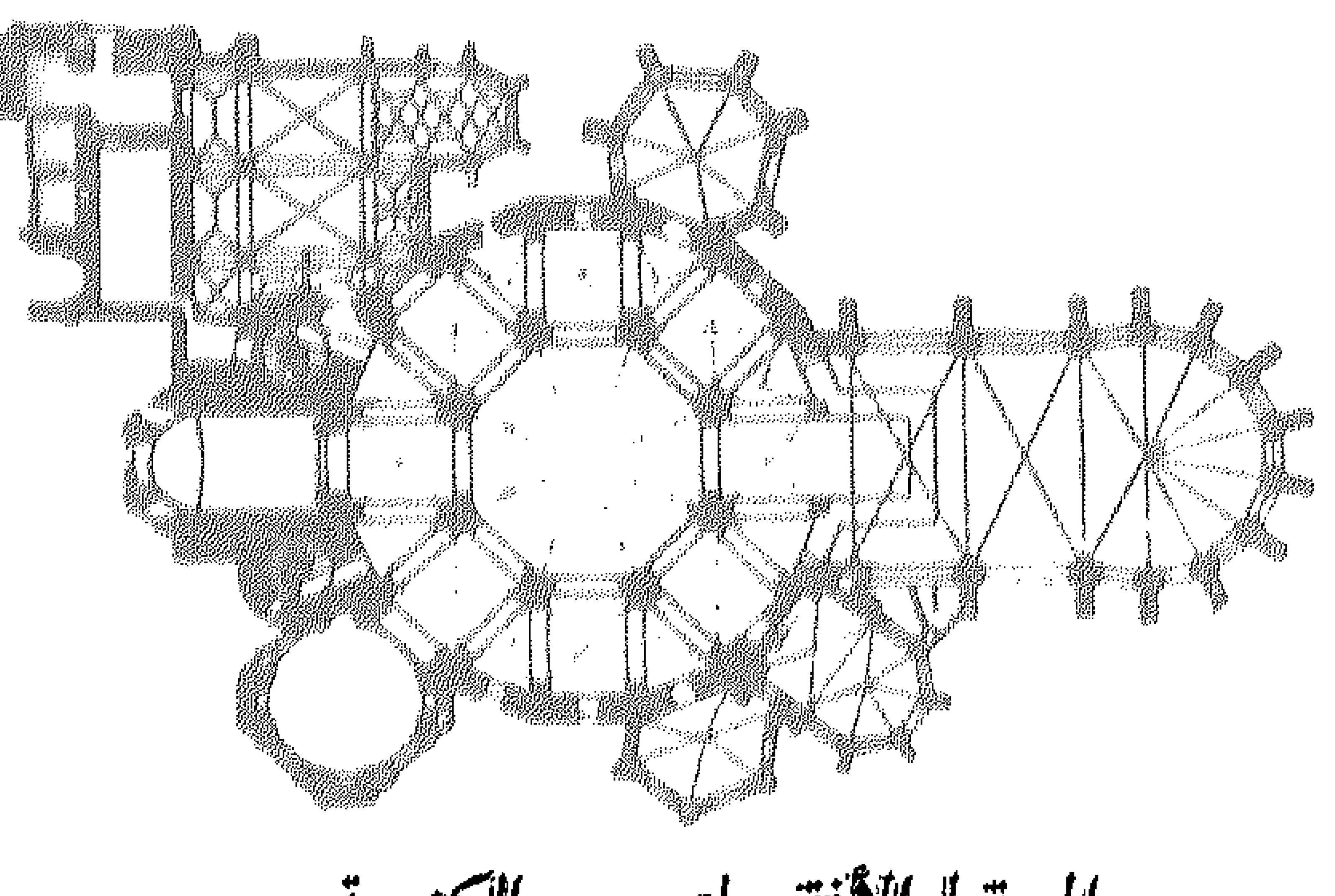


يصحح ما كان فاسدا منها، وما ورد فى تفسيرها بشكل خاطئ. . كذلك أمر شارلمان بأن تجمع القوانين الخاصة بكل القبائل التى تخضع لسلطانه وتدون». كذلك استحدث شارلمان بعض التشريعات تسمى (التنظيمات) وهى فى الواقع مجموعة من الأوامر والمراسيم المتباينة هدفها إقرار النظام والعدالة فى الدولة.

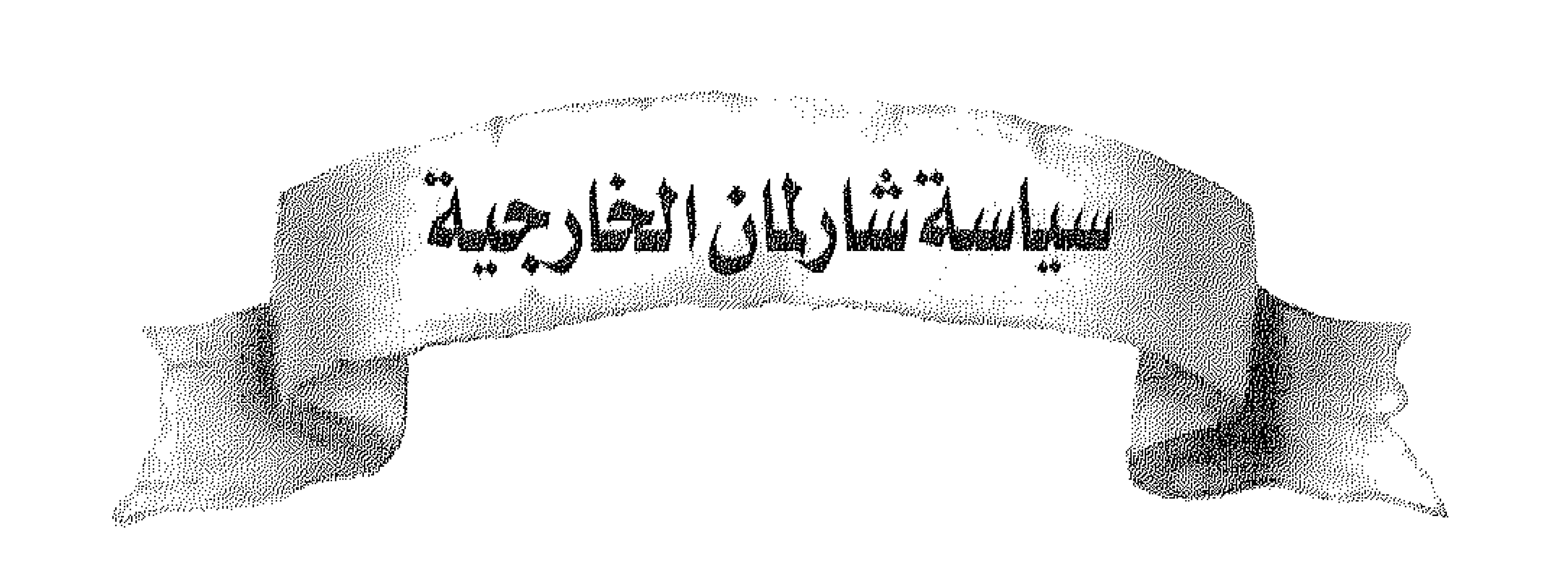
وحظيت العمائر الدينية وغيرها باهتمام كبير من جانب شارلمان، وكثيرا ما كان يرسل الكهنة ورجال الكنائس من أجل العمل على رعايتها والقيام بإصلاحها، وأرسل المبعوثين ليتحقق من حسن تنفيذ أوامره.

ومن أشهر عمائره الدينية كنيسة جميلة وهى كنيسة مريم العذراء فى عاصمته إكس لاشابل (آخن)، وشرع فى بنائها فى عام ٧٩٦م، وقام بالعمل فيها نخبة من المهندسين والصناع المهرة الذين استحضرهم شارلمان من مختلف البلاد، وقد زين شارلمان هذه الكنيسة كما يروى إينهارد بالذهب والفضة والقناديل، وجعل لها سياجا وأبوابا من النحاس الخالص، وجلب شارلمان الأعمدة والرخام اللازمين لهذا البناء من مدينتى روما ورافنا. . . وزود الكنيسة بمقادير ضخمة من الأوانى المقدسة المصنوعة من الذهب والفضة وبكمية كبيرة من الأردية الكهنوتية (أى ملابس رجال الدين).

ومن أعمال شارلمان المعمارية كذلك أنه أقام جسرا على نهر الراين طوله نصف ميل وبعرض النهر. كما باشر شارلمان بناء قصرين من أروع ما صنعته مهارة الإنسان، وأهمهما قصره فى إكس لاشابل الذى عاش فيه بشكل دائم خلال السنوات الأخيرة من حياته.


المسقط الأفقى لتصميم الكنيسة


كنيسة آخن

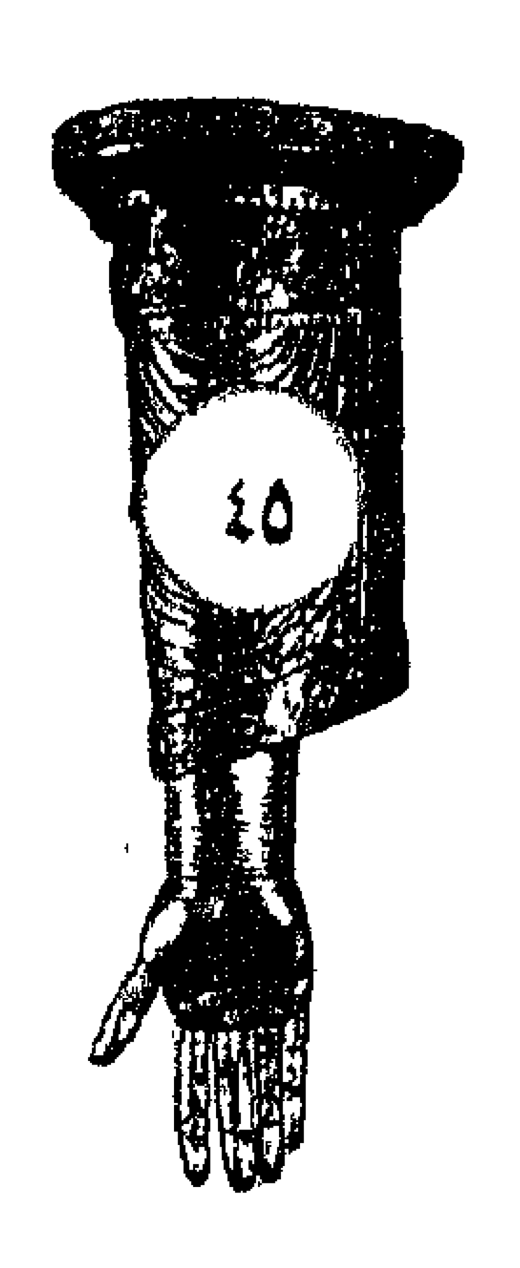


أولا: علاقة شارلمان بالبابوية:

حافظ شارلمان على علاقة المودة والصداقة التى ربطت أباه بيبن القصير بالبابوية ويظهر ذلك من خلال حرصه على رعاية البابوية وحمايتها والحفاظ على أملاكها ومصالحها، ففى الوقت الذى انفرد فيه شارلمان بالسلطة عام ٧٧١م، كانت البابوية تعانى من ضغط اللمبارديين على أملاكها وتهديدهم لروما نفسها مقر البابا، وتقاعس البيزنطيون عن الدفاع عنها وحماية أملاكها مما دفعها إلى الاستنجاد بحليفها القوى شارلمان ملك الفرنجة، الذى لبى النداء على الفور وخرج على رأس جيوشه متجها صوب إيطاليا حيث يقطن اللمبارديون، ونجح شارلمان فى إنزال الهزائم المتتالية باللمبارديين، ونجح فى القضاء عليهم وأعاد للبابوية أملاكها، بينما احتفظ هو ببقية الممتلكات، ويذكر إينهارد فى هذا الصدد ما يلى: «أنهك شارلمان ملك المبارديين ديسيد ريوس باستخدام أسلوب الحصار الطويل الأمد، وبالتالى أجبره على الاستسلام دون قيد أو شرط . . . وأعاد فتوحات الملوك اللمبارديين إلى هادريان زعيم الكنيسة الرومانية».

وقام شارلمان بعد ذلك بزيارة البابا هادريان (٧٧٢ - ٧٩٥م) فى روما فى عام ٧٧٤م مثلما فعل أبوه بيبن القصير منذ عشرين عاما، حينما زار روما فى عام ٧٥٤م بعد انتصاره على اللمبارديين وإعادته بافية إلى البابوية مرة ثانية، وجدد شارلمان بذلك الحلف والصداقة التى ربطت الطرفين من قبل، بل وأعاد إلى الأذهان هبة والده بيبن، تلك الوثيقة التى أودعها بيبن على مقبرة القديس بطرس فى روما قبل مغادرتها والتى اعترف فيها صراحة بسيادة البابوية الدنيوية والسياسية إلى جانب سيادتها الدينية. وبذلك تكون البابوية قد حققت الزعامة على العالم الغربى فى النصف الثانى من القرن الثامن للميلاد، بفضل حليفها القوى شارلمان الذى خلصها من ألد أعدائها وهم اللمبارديون وأغدق عليها المزيد من السلطان والنفوذ؛ وقد حفظت البابوية له هذا الصنيع وأيدته فى جميع خطواته وحروبه.

ظل شارلمان مساندا قويا للبابوية، فعندما تعرض البابا ليو الثالث (٧٩٥ - ٨١٦م) خليفة هادريان للإهانة على يد جماعة من نبلاء مدينة روما، واتهموه ببعض الاتهامات التى تتعلق بأخلاقه الشخصية، وانقضوا عليه فى أحد شوارع روما (٧٩٩م) وأوسعوه ضربا وأودعوه السجن. فما كان من البابا ليو إلا أن فر هاربا إلى حليفه شارلمان طالبا العون والمساعدة، وفى الحال قام شارلمان بتهدئة



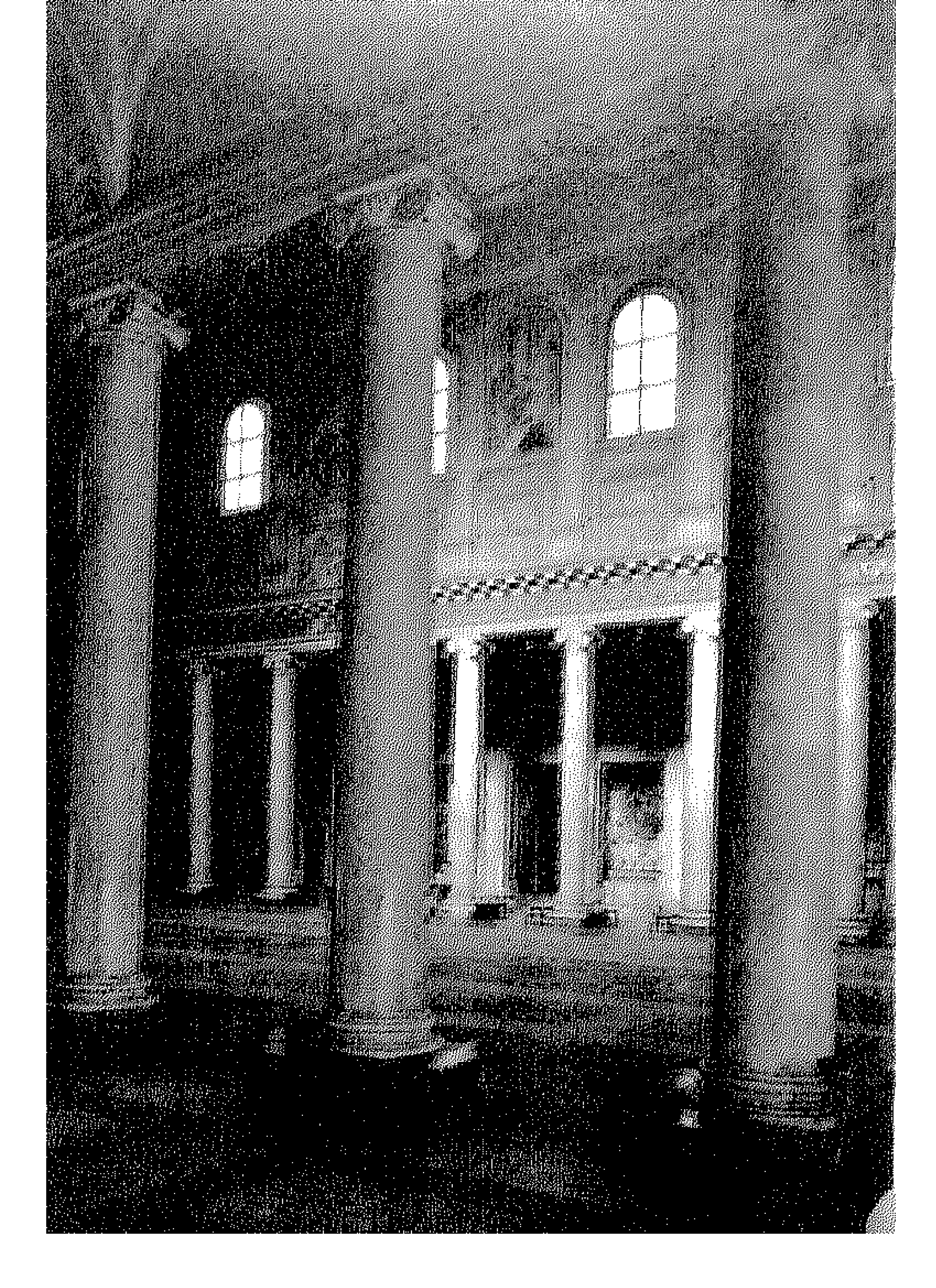
البابا وأعاده إلى روما وبصحبته حامية عسكرية ثم ذهب شارلمان بنفسه إلى روما، حيث عقد محكمة علنية برئاسته فى عام ٨٠٠م، وأقسم البابا على الأناجيل المقدسة أنه برىء من التهم الموجهة إليه، وفى النهاية قرر القضاة تبرئة البابا وإعدام المتآمرين ثم استبدل قرار الإعدام بالنفى.

وردا لجميل شارلمان قام البابا ليو الثالث بتتويجه إمبراطورا ليلة عيد الميلاد من عام ٨٠٠م فى كنيسة القديس بطرس فى روما وأثناء قيامه بالصلاة، وهنا صاح الحاضرون من رجال الكنيسة ومن أتباع شارلمان «الحياة والنصر لشارل العظيم إمبراطور الرومان» وأطلق عليه كما يروى إينهارد لقب: إمبراطور أوغسطس Emperor and Augustus.

ويبدو أن ما دفع البابا إلى تتويج شارلمان إمبراطورا هو رغبته فى استخدام التتويج وسيلة لإعادة تأكيد سلطان البابوية وهيبتها فى الغرب الأوروبى، ويبدو أيضا أن البابا أحس بما وصلت إليه سلطته من مهانة فى نظر المحيطين به وخاصة شارلمان نفسه؛ لذلك أسرع بتتويجه لأنه بهذا التتويج سيكون صاحب النفوذ الأعلى على شارلمان، كذلك فشل بيزنطة فى الدفاع عن ممتلكات البابوية فى إيطاليا وحماية الكنيسة الرومانية وحقوقها من الخطر اللمباردى فى حين نجح شارلمان فى دفع هذا الخطر، كل ذلك كان حجة في يد البابوية لنقل التاج إلى شارلمان.

ونظرا لأن تتويج شارلمان لم يكن بالأمر السهل الهين، إذ ليس له سابقة تاريخية فقد ترتب عليه نتائج هامة من بينها، إحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب على يد شارلمان بعد أن ظل القسم الغربى منها بلا إمبراطور منذ سقوط روما على يد الجرمان عام ٤٧٦م، كذلك أصبح شارلمان هو مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب، التى لعبت دورا كبيرا فى أحداث العصور الوسطى، يضاف إلى ذلك أن البابوية بتتويجها شارلمان إمبراطورا قطعت الرباط الذى كان يربطها بالإمبراطورية البيزنطية، فى حين دعمت الرباط الذى كان يربطها بدولة الفرنجة، وأكسبته طابعا دينيا مقدسا، وظهرت بمظهر من قام بمنح التاج للإمبراطور تأكيدا لما تتمتع به من سلطة زمنية علمانية دنيوية إلى جانب سلطتها الدينية.

أما عن أثر تتويج شارلمان على الإمبراطورية البيزنطية، فقد كان بمثابة طعنة نجلاء صوبتها البابوية إلى صدرها؛ وذلك لعداء البابوية لبيزنطة بسبب موقفها من عبادة الأيقونات (أى الصور المقدسة) من ناحية وتقاعسها عن الوقوف إلى جانب البابوية ضد اللمبارديين وفشلها فى حماية ممتلكات البابوية والكنيسة الغربية من هذا الخطر من ناحية أخرى. وقد انتهزت البابوية الفرصة المناسبة لتوجيه هذه الطعنة لصدر الإمبراطورية البيزنطية وهى وجود الإمبراطورة إيرينى على العرش التى قبضت على ابنها قسطنطين السادس - صاحب الحق الشرعى فى العرش - وسملت

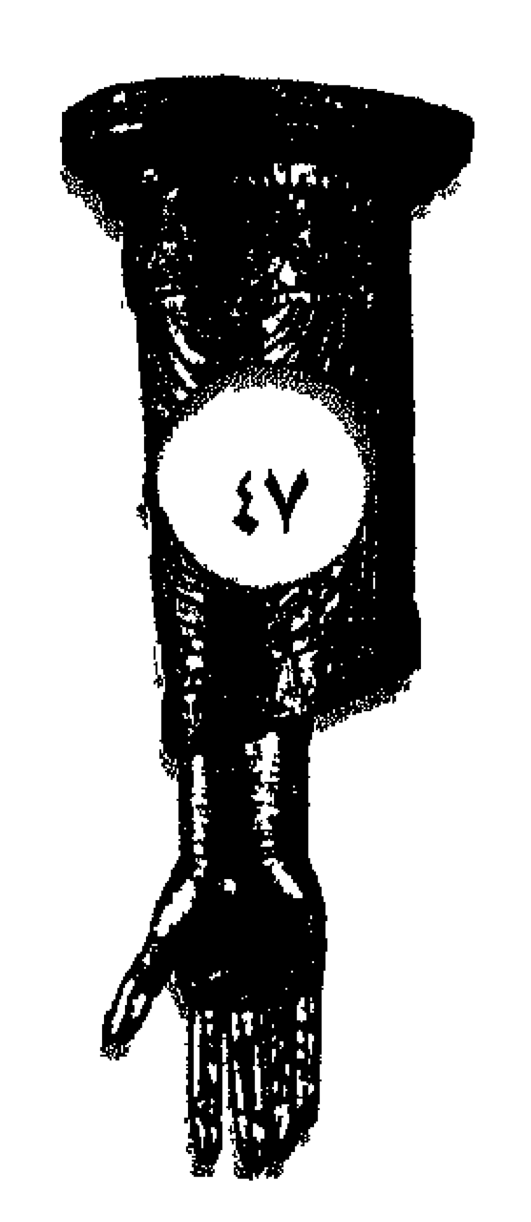


كنيسة سانتا ماريا المقدسة فى روما

عينيه وزجت به فى السجن عام ٧٩٧م؛ لذلك اعتبرت البابوية عرش بيزنطة شاغرا، ووضعت التاج على رأس شارلمان، فهو فى نظرها المؤهل الوحيد لشغل هذا المنصب.

ويصف إينهارد موقف بيزنطة من تتويج شارلمان إمبراطورا بقوله: «لقد استاء أباطرة الرومان (أى الأباطرة البيزنطيين) استياء بالغا من إنعام البابا على شارلمان بهذين اللقبين (أى لقب إمبراطور وأغسطس). ورفضت بيزنطة

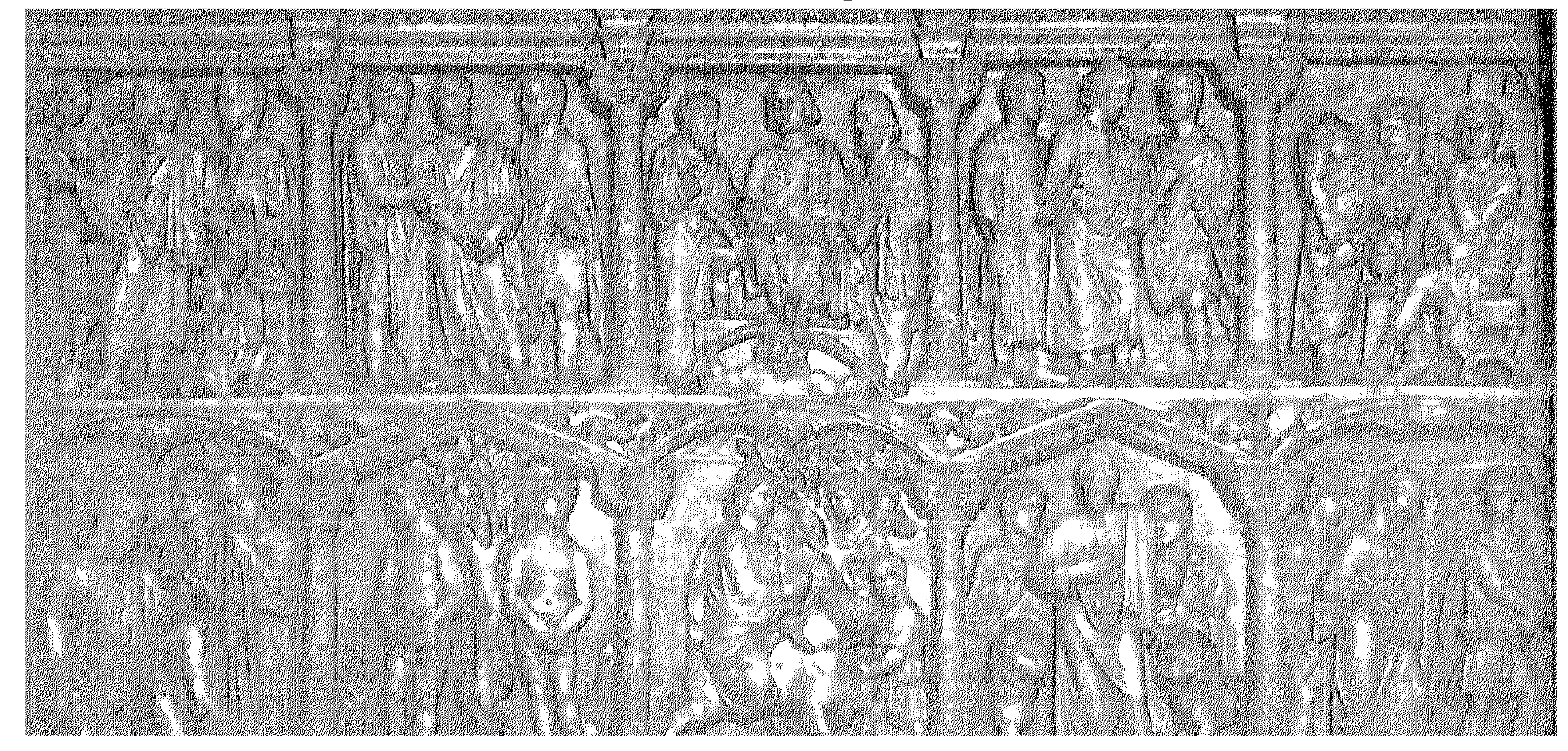
فسيفساء فى قصر الحكم البيزنطى - ڤيينا



وعلى رأسها الإمبـراطورة إيرينى الاعتراف بشارلمان إمبراطورا، فـقد تمسكت بيزنطة دائما بمـبدأ وحدة الإمـبراطورية الرومـانية فى الشـرق والغرب، وكـانت تعتـقد أن الإمبراطور الرومانى ليس سوى الإمبـراطور الجالس على عرش القسطنطينية؛ ولهذا فقـد كان شارلمـان فى نظرها مجرد زعـيم چرمانى مـغتصب للتـاج، كمـا أنه حرم الإمبراطورية البـيزنطية من كل سيطرة تدعـيها على البابوية والعـالم الغربى؛ لذلك اعتبرت بيزنطة مراسم تتويج شارلمان فى كنيسة القديس بطرس فى روما مجرد «ملهاة هزلية غير جديرة بالاحترام».

حاول شارلمان كـما يروى إينهارد التقـرب من البيزنطيين، وتحمـل حسدهم بصبر جميل، واستـل غضبهم، وهدهد من غطرسهم برسائله الرقيـقة، ورسله الذين حملوا إليهم حبـه وإخوته لهم... مما جـعل ثورة الغضب تنطفئ فى نفـوسهم. وذهب شارلمـان إلى أبعد من ذلك، فقـد عرض الزواج على الإمـبراطورة البـيزنطيـة إيرينى ليوحـد بذلك الإمبـراطوريتين فى إمبراطورية واحدة، ولكن لم يقدر لهذا المشروع النجاح، إذ سرعان ما قامت ثورة فى القسطنطينية أطاحت بحكم إيرينى فى أكـتوبر ٨٠٢م، وتولى العـرش بدلا منها نقـفور الأول (٨٠٢ ـ ٨١١م) ورفض بدوره الاعتراف بشارلمان إمبراطورا، وظلت العلاقة سيئة بين الطرفين حتى اضطرت بيزنطة تحت وطأة الأخطار الخارجـية التى كانت تتهددهـا، وخاصة خطر البلغار ـ إلى الاعـتراف بشارلمان إمبراطورا فى عهـد الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الأول (٨١١ ـ ٨١٣م) خليـفة نقفور. ومنذ ذلك الحين تقاسم العـالم الرومانى إمبـراطوريتين هما: الإمـبراطورية البيـزنطية فى الشرق وعـاصمتـها القسطنطينية، وإمبراطورية شارلمان أو الفرنجة فى الغرب وعاصمتها إكس لا شابل (آخن).

نحت بارز على ضريح من كنيسة القديس بطرس روما





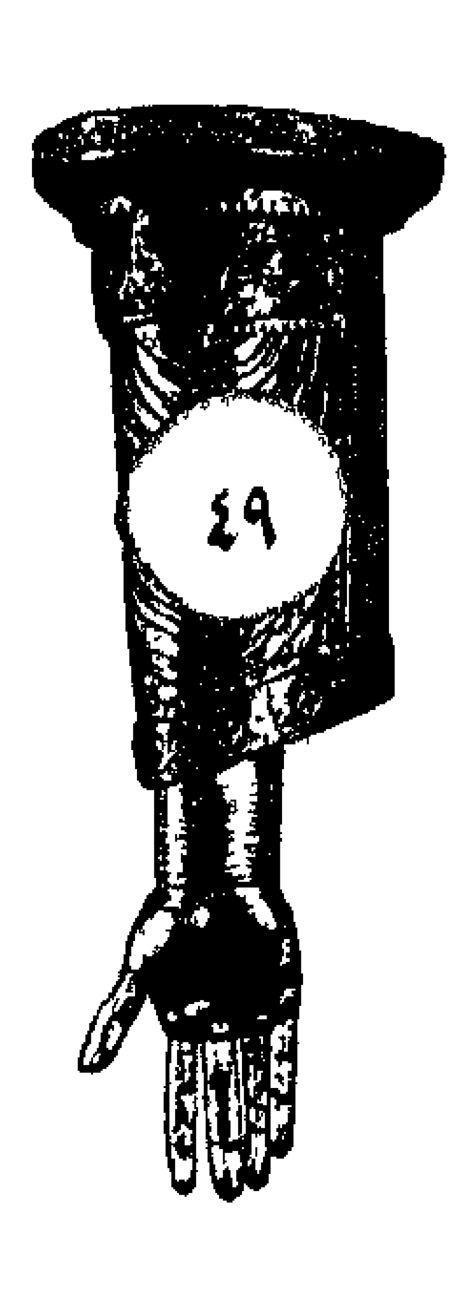
ثانيا: حروب شارلمان:

وهى حروب كثيرة متعددة وهى التى أكسبت شارلمان شهرة واسعة، وحقق من ورائها انتصارات ضخمة خلدت اسمه فى التاريخ، وأعادت إلى أذهان المعاصرين ذكريات الإمبراطورية الرومانية القديمة بأمجادها وانتصاراتها السابقة، والحقيقة أن الانتصارات التى حققها شارلمان فى هذه الحروب كانت العامل الأساسى فى تقبل أهالى العالم الغربى لفكرة تتويج شارلمان إمبراطورا على الرومان رغم كونه فرنجيا جرمانيا. وقد تحدث إينهارد مؤرخ شارلمان عن هذه الحروب فى عدة فصول من كتابه سيرة شارلمان، وخصص لكل منها فصلا قائما بذاته؛ ومن هذه الحروب الحرب الأقطانية، والحرب اللمباردية، والحرب السكسونية، والحملة الإسبانية، والحملة البافارية، والحرب السلافية، والحرب مع الهون، والحرب الدانماركية. وقد أعد شارلمان كما يذكر إينهارد لهذه الحروب بمهارة فائقة وأنجزها بنجاح كبير واستطاع بذلك أن يوسع إلى حد كبير مملكة الفرنجة.. وأضاف إلى رقعتها الأولى أكثر من ضعفها، ولن نخوض فى تفاصيل هذه الحروب كلها بل سنفصل لأهمها:

أ - الحرب اللمباردية:

خاض شارلمان غمار الحرب مع اللمبارديين كما يروى إينهارد ـ «بدافع من توسل هادريان بابا روما ورجائه بشن الحرب ضد اللمبارديين». ويتضح من ذلك أن شارلمان حارب اللمبارديين استجابة لتوسلات البابا هادريان (٧٧٢ ـ ٧٩٥م) بابا روما؛ وذلك لاستيلاء اللمبارديين على أملاك البابوية وتهديدهم روما نفسها قاعدة البابوية. كما أن السبب فى حملة شارلمان ضد اللمبارديين يرجع كذلك إلى محاولة ديسيدريوس (٧٥٦ ـ ٧٧٤م) ملك اللمبارديين الضغط على البابا هادريان حتى يتوج بيبن بن كارلومان ـ شقيق شارلمان ـ ملكا على الفرنجة، ومن أجل هذا زحف ديسيدريوس إلى روما عام ٧٧٢م لتتويج ابن كارلومان بالقوة ملكا على الفرنجة، غير أن تهديد البابا بإصدار قرار الحرمان ضده اضطره إلى التوقف والعودة إلى بلاده، وأثناء ذلك كان البابا هادريان قد بعث إلى شارلمان يطلب منه المساعدة العاجلة ضد اللمبارديين.

أعلن شارلمان الحرب على اللمبارديين فى عام ٧٧٣م وخرج بنفسه على رأس الجيش متجها إلى إيطاليا، وحاصر العاصمة اللمباردية مدينة بافية تسعة أشهر، حتى أنهك الملك ديسيدريوس وأجبره على الاستسلام دون قيد أو شرط كما يروى إينهارد، كذلك طرد أداجيس Adalgis بن ديسيدريوس من إيطاليا كلها واسترد للرومان كل ما كانوا قد فقدوه، وأخضع إيطاليا كلها لسلطانه، ونصب ابنه بيبن ملكا عليها فى عام ٧٨١م. أما عن مصير ديسيدريوس ملك اللمبارديين



فهــو غير مــعروف، إذ يذكر إينهــارد «أنه نفى مدى الحيــاة». فى حين تذكر رواية أخرى أنه هرب مع زوجته عبر جبال الألب إلى بافارية، حــيث قضيا بقية حياتهما فى ديرين منفصلين، فى حين يذكــر البعض أن ديسيدريوس وقع فــى أسر شارلمان الذى قام بسمل عينيه، وأدخله دير كوربى أحد أديرة بلاد الغال (فرنسا الحالية).

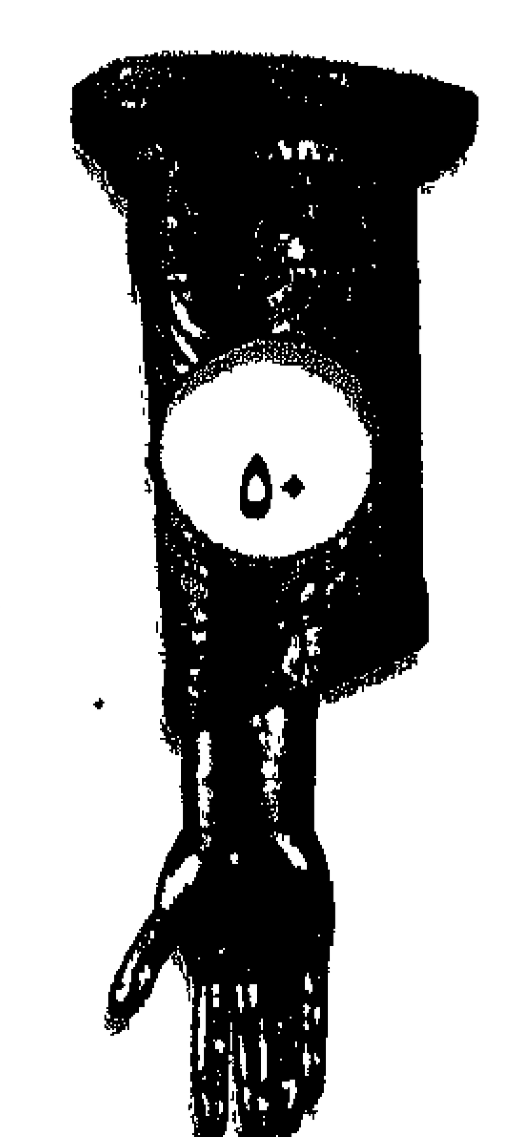
وتعتبر حملة شارلمان على إيطاليــا من أهم الحملات التى قام بها فى تاريخه السيــاسى والعسكرى لما تــرتب عليها من نــتائج هامة، منــها القضــاء على مملكة اللمبارديين واتخاذ شارلمان لقب «ملك اللمبارديين»، كما أصبح له قدم فى إيطاليا بعد أن أخضعها لسلطانه وهذا ما كان يسعى إليه، فضلا عن أن هذه الحملة أنقذت البابوية من خطر اللمبــارديين إلى الأبد، وأعادت إليها ما فقــدته من ممتلكات، كذلك ترتب على هذه الحملة أن غــدت ممتلكات شارلمان فى إيطاليا مــتاخمــة لممتلكات الدولة البيــزنطية فى جنوب إيطاليا.



وصول جيوش شارلمان

ب – حروب شارلمان ضد السكسون (٧٧٢ - ٨٠٤م):

السكسون مجــموعة من القبــائل الجرمانية التى كــانت تعيش فى المنطقة الممتــدة من الضفة الشرقية لنهــر الراين حتى نهر الألب عبر سهول وسط ألمانيا. وترجع أســباب الحروب بين شارلمان



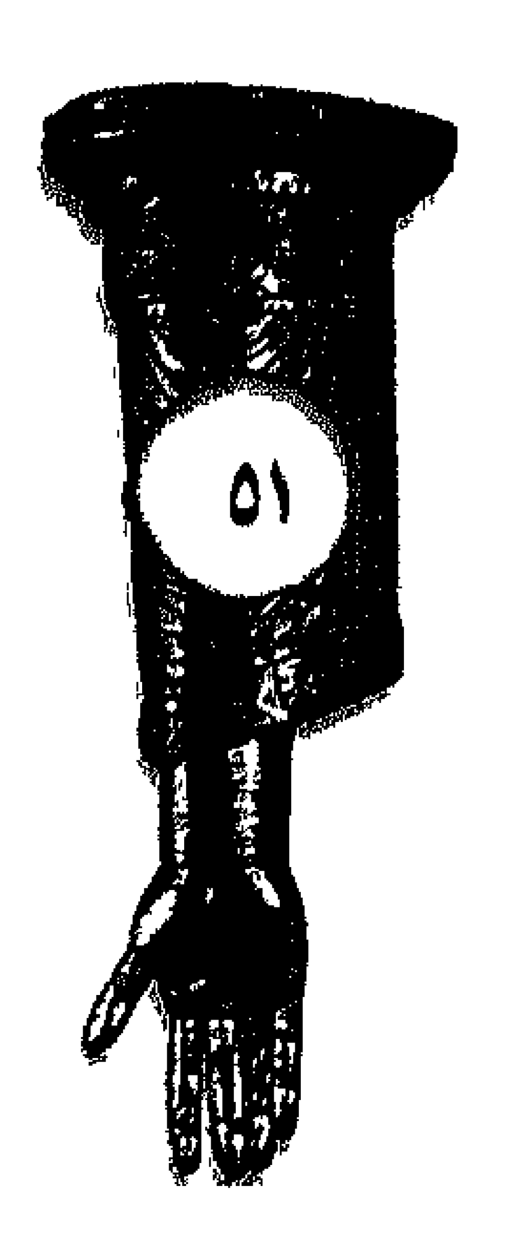
والسكسون إلى رغبة شارلمان فى توسيع حدود مملكته من ناحية وحماية حدود بلاده من إغاراتهم التى لا تنقطع من ناحية أخرى، ونشر المسيحية بينهم من ناحية ثالثة. أما عن السبب المباشر فهو أن السكسون رفضوا أن يدفعوا الإتاوة المقررة عليهم والتى تعهدوا بدفعها لبيبن القصير والد شارلمان نظير انسحابه من بلادهم عام ٧٥٨م.

وقام شارلمان بثمانى عشرة حملة ضد السكسون، ويذكر إينهارد أن حروب شارلمان مع السكسون دامت ثلاثة وثلاثين عاما متصلة، كما يذكر أيضا «ما من حرب خاضتها أمة الفرنجة بلغت من العنف والاستمرار، ومن كثرة النفقات واستنفاد الجهد مثلما بلغته الحروب مع السكسون». وقد تعددت حروب شارلمان مع السكسون وطال أمدها لأسباب، من بينها صعوبة بلادهم التى يغلب عليها الغابات الواسعة والأحراش والسلاسل الجبلية، مع عدم وجود مدن حصينة أو معاقل محصنة للسكسون يمكن أن يحاصرها شارلمان، كذلك عدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسلكها جيوش الفرنجة، بالإضافة إلى عناد السكسون وشدة تمسكهم بعقائدهم واستقلالهم وهذا ما عبر عنه إينهارد فى عبارته «كفر السكسون وعنادهم». يضاف إلى ما سبق ارتداد السكسون عن المسيحية أكثر من مرة، ونقضهم المعاهدات مع الفرنجة.

وظل شارلمان مع ذلك يكافح السكسون ويحاول كسر شوكتهم والقضاء على عصبيتهم، حتى نجح فى إخضاعهم تماما، وانتهت حروب شارلمان مع السكسون بقبولهم الشروط التى عرضها عليهم والتى تشمل تخليهم عن أعرافهم الدينية والقومية وعبادة الشياطين كما يروى إينهارد، وقبول طقوس العقيدة المسيحية والدين المسيحى، ومن ثم الاتحاد مع الفرنجة لتكوين شعب واحد. وإلى جانب تنصير السكسون، فقد كان لصراع شارلمان المرير مع السكسون نتائج أخرى هامة، من بينها أن السكسون أصبحوا بعد نصف قرن تقريبا أكثر الشعوب الجرمانية تمسكا بالمسيحية وغيرة عليها، كما دخل السكسون نطاق الحضارة الأوربية ومدنيتها، فضلا عن استيطان أعداد كبيرة من الفرنجة فى بلاد السكسون لاستغلالها والإفادة من ثرواتها، كذلك اتسعت حدود مملكة شارلمان لتصبح متاخمة للدانماركيين والسلاف وأدى ذلك إلى صراعات جديدة كان على شارلمان أن يخوضها.

جـ - حرب شارلمان ضد مسلمى إسبانيا (١٦١هـ / ٧٧٨م):

كان شارلمان يهدف من وراء حربه مع المسلمين فى الأندلس التوسع فيما وراء جبال البرانس وتحقيق الحلم الذى كان يداعب خياله، وهو تكوين إمبراطورية تعيد ذكرى الإمبراطورية الرومانية القديمة عظمة واتساعا، كما كان يهدف إلى تأمين حدود مملكته الجنوبية من تهديد المسلمين فى



الأندلس، وقد ساعد شارلمان على القيام بحملته على بلاد الأندلس تحريض نفر من الزعماء المسلمين فى الأندلس والساخطين على عبد الرحمن الداخل، وعلى رأسهم سليمان بن يقظان والى برشلونة وحليفه الحسين بن يحيى الأنصارى صاحب سرقسطة، وقد طلبا من شارلمان أن يغزو الولايات الشمالية الأندلسية، وتعهد هؤلاء بأن يقدموا له يد العون والمساعدة، وأن يسلموا له المدن التى يتولون، ويدينون له بالطاعة والولاء، وذلك فى مقابل مساعدة شارلمان لهم فى القضاء على عبد الرحمن الداخل الذى سيطر على قرطبة.

وبناء على هذه الدعوة خرج شارلمان على رأس حملته فى ١٦١هـ/ ٧٧٨م متجها نحو الأندلس، ويذكر إينهارد «أن شارلمان زحف فوق جبال البرانس إلى إسبانيا على رأس كل القوات التى استطاع تجنيدها». وقد شجعت البابوية وعلى رأسها البابا هادريان (٧٧٢ ـ ٧٩٥م) شارلمان على القيام بهذه الحملة وباركتها، واعتبرتها حربا مقدسة.

وبعد أن اجتاز شارلمان جبال البرانس، عبر ممر رونسفالة (انشفالة) واخترق بلاد الباسك (البشكنس) وهى قبائل مسيحية، وحاصر مدينتهم بامبلونة واستولى عليها ووضع فيها حامية من رجاله، ثم اتجه شارلمان نحو مدينة سرقسطة وهى الهدف الرئيس للحملة، معتقدا أنها ستفتح له أبوابها، غير أن سرقسطة أغلقت أبوابها فى وجهه، فضرب الحصار عليها، فقاومت الحصار بقيادة واليها الحسين ابن يحيى الأنصارى الذى رفض التسليم لشارلمان، خاصة بعد أن نقم على سليمان ابن يقظان حليفه؛ لأنه تظاهر بالزعامة أمام الفرنجة ونشبت الخصومة بينهما، أو ربما أن الحسين خشى عاقبة التورط فى حلف مع شارلمان فعدل عن موقفه فى آخر لحظة حينما شعر بمسير شارلمان نحو مدينته؛ وقام بتحصين مدينته، وصد جميع هجمات شارلمان، واضطر شارلمان لرفع الحصار عن سرقسطة والعودة إلى بلاد الغال خاصة

وقد بلغه اندلاع ثورة فى سكسونيا، فقد استغل السكسون فرصة غيابه فى إسبانيا وقاموا بالإغارة على أراضيه.

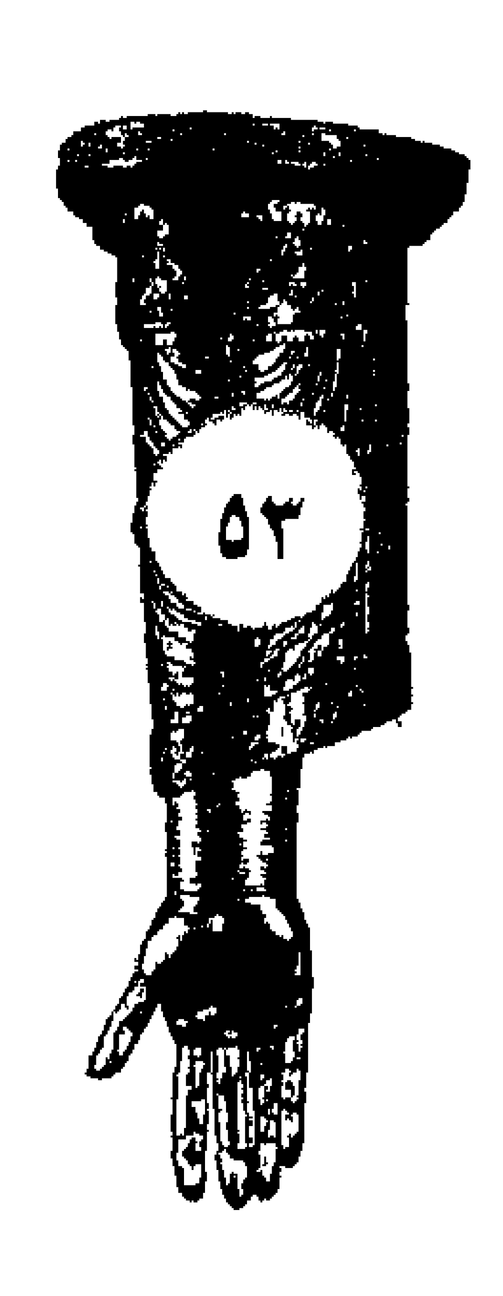
وفى طريق العودة ألقى شارلمان القبض على سليمان بن يقظان، وعند اجتيازه مضيق رونسفالة تعرضت مؤخرة جيشه وعلى رأسها رولان للهجوم من جانب المسلمين بزعامة ولدى سليمان بن يقظان وهما مطروح وعيشون، وتعاون معهما فى هذا الهجوم عناصر الباسك المسيحية فى شمال الأندلس، وذلك انتقاما من شارلمان لما أنزله ببلادهم من تخريب وتدمير بعد أن استولى على مدينتهم بامبلونة، وأسفر هذا الهجوم عن هزيمة شارلمان هزيمة منكرة فى هذه المعركة التى تعرف باسم (رونسفال أو رونسفالة أو رونشفالة)، وراح ضحية هذا الهجوم خيرة رجالات شارلمان، وقد خصهم إينهارد بالذكر لمكانتهم الكبيرة فى الجيش الفرنجى وهم «إجيهارد Eggihard معتمد الملك الخاص، وأنسليم Anselm كونت بالاتين، وورولاند Roland حاكم ثغر بريتانى فى شمال غرب فرنسا، مع عدد كبير آخر من الفرنجة من ضحايا هذه المعركة». وكان مقتل رولاند محورا لأنشودة مشهورة فى تاريخ العصور الوسطى، ظهرت بعد ذلك بعدة قرون وصورت شارلمان فى صورة الصليبى الأول، وهى الأنشودة المعروفة بـ «أنشودة رولاند».

وبهزيمة شارلمان فى معركة رونسفالة تبدد حلمه فى إزالة السيادة العربية عن الأندلس، وتكوين إمبراطورية على النسق الرومانى، فضلا عن تزايد نفوذ عبدالرحمن الداخل الأموى الذى نجح فى التخلص من كل الذين اتصلوا بشارلمان ووعدوه بتقديم العون والمساعدة وفرض سلطانه على سرقسطة وغيرها؛ كما تصالح كل من شارلمان وعبد الرحمن الداخل، وتم عقد معاهدة بينهما، تعهد فيها كل منهما بعدم الاعتداء على الطرف الآخر.

د - حروب شارلمان ضد الآفار:

الآفار شعب من أصل آسيوى، كون دولة كبرى خلال القرنين السابع والثامن للميلاد بعد هزيمة كثير من الشعوب والقبائل السلافية الضعيفة. وكانت غارات الآفار التى يشنونها فى سبيل الحصول على الغنائم والأسلاب، مصدر تهديد مستمر لدولة الفرنجة، الأمر الذى دفع شارلمان أخيرا إلى القيام بهجوم مضاد.

ويعتبر إينهارد حروب شارلمان ضد الآفار ـ باستثناء حروبه ضد السكسون ـ من أعظم الحروب التى خاضها، فقد تحمس لها ـ كما يروى إينهارد حماسة لا تضاهيها حماسة لأية حرب أخرى، كما كانت استعداداته الكبيرة لها لا تضاهيها استعدادات لأية حرب أخرى.



قاد شارلمان بنفسه أولى حملاته ضد الآفار فى عام ٧٩١م، وكان يساعده جيش آخر من اللمبارديين بقيادة ابنه بيبن، واضطر الآفار ـ الذين استبد بهم الخوف ـ إلى التخلى عن خط حصونهم الأول، وأذعن عدد كبير من مدن الآفار لشارلمان، ولقى عدد كبير منهم مصرعهم.. ولكن اضطر شارلمان للانسحاب بسبب اقتراب فصل الشتاء من ناحية واندلاع ثورة فى سكسونيا من ناحية أخرى، تاركا أمر متابعة الحرب لابنه بيبن ـ واستمرت الحرب ضد الآفار كما يروى إينهارد سبع سنوات من الصراع، وانتهت بانتصار الفرنجة وتدمير مملكة الآفار تدميرا كاملا، فيذكر إينهارد أن بانونيا ـ على نهر الدانوب ـ وهى مقر الآفار قد خلت من سكانها تماما، وتحول موقع قصر الخان (أى حاكم الآفار) إلى صحراء جرداء، حيث لم يعد هناك أى أثر يدل على وجود إنسانى، مما يدل على كثرة المعارك التى دارت هناك خلال السنوات السبع، وعلى الدماء الغزيرة التى أريقت فيها. ويتابع إينهارد فيذكر أن الفرنجة استولوا على كل الأموال والكنوز التى كان قد كدسها الآفار خلال سنين عديدة، وهم لا يذكرون حربا أخرى جلبت لهم مثل هذه الثروات وتلك الغنائم على كثرة ما خاضوه من الحروب.

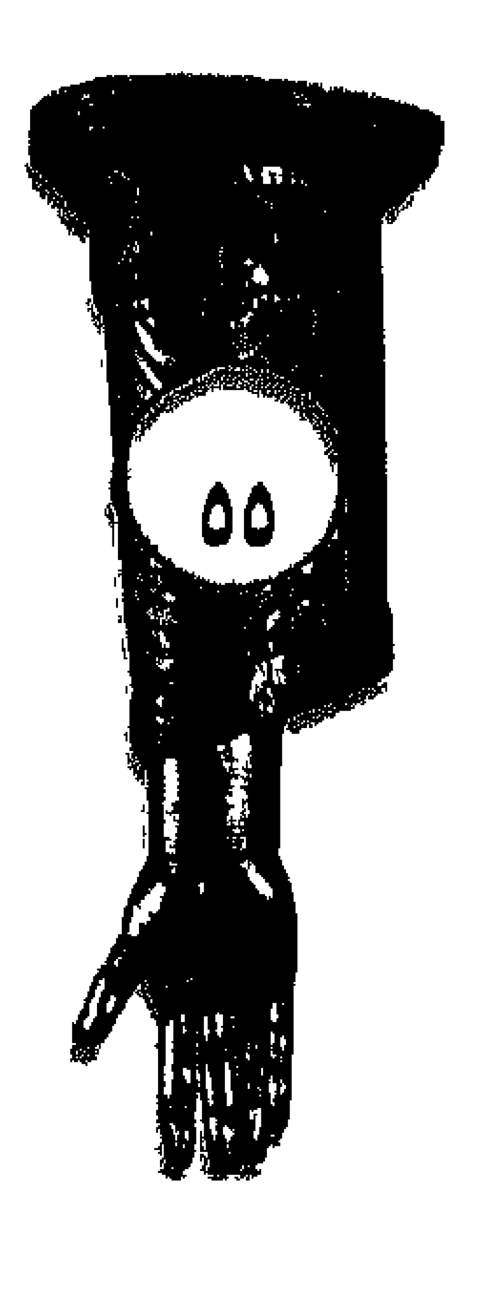
ويذكر إينهارد أيضا أن عدد قتلى الفرنجة فى هذه الحرب كان قليلا، إذا قيس بحروبهم الأخرى، على طول أمدها وضراوة معاركها وبالغ أهميتها، وقد انتهت إلى نتيجة مرضية سعيدة بأقل ما يمكن من الدماء المراقة. وهكذا تمكن شارلمان من تدمير قوة الآفار العسكرية مما أتاح له أن يضيف إلى مملكته أراضى جديدة على طول نهر الدانوب ويهدم دولة آسيوية طالما أفزعت أرجاء أوربا الشرقية، وسيطر الفرنجة بذلك على الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة البلقان.

الفصل الثالث
العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان

ربطت هارون الرشيد بشارلمان علاقات محبة ومودة وصداقة، وحدث نوع من التقارب بين الرجلين، والحقيقة أن العلاقات بينهما لها جذور قديمة فلم تكن وليدة عهدها، فقد تبادل الخليفة العباسى المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م) وبيبن القصير (٧٥٢ ـ ٧٦٨م) والد شارلمان السفارات والهدايا، وحدث نوع من التقارب بينهما يرجع إلى عدة عوامل، من بينها قلق كل من الخليفة المنصور وبيبن القصير لنمو قوة الأمويين فى الأندلس، وخاصة بعد فشل الحملة التى أرسلها المنصور فى عام ١٤٦ ـ ١٤٧هـ/ ٧٦٣ ـ ٧٦٤م بقيادة العلاء بن المغيث لاسترداد الأندلس، وهزيمته هزيمة ساحقة على يد عبد الرحمن الداخل. هذا إلى جانب رغبة بيبن فى الاستعانة بالعباسيين وجيوشهم لإضعاف أعداء الطرفين، أى أباطرة الدولة البيزنطية. ويضاف إلى ذلك أن ما حدث من تطور التحالف بين دولة الفرنجة وبين البابوية لمقاومة الدولة البيزنطية يعتبر عاملا هاما فى تطور العلاقات بين الفرنجة والعباسيين؛ وذلك لأن سياسة البابوية

قصر الأخيضر ـ قصر الخليفة المنصور ببغداد





درجت وقتذاك على منع قيام التحالف بين بيبن ملك الفرنجة وقسطنطين الخامس إمبراطور بيزنطة. ومن ثم فإن تأييد الفرنجة لسياسة البابوية ضد القسطنطينية يعتبر من العوامل التى جعلت بيبن يسعى لالتماس صداقة الخليفة العباسى المنصور عدو بيزنطة.

وأرسل بيبن القصير ملك الفرنجة سفارة إلى بغداد فى عام ١٤٨هـ/ ٧٦٥م، ووجدت هذه السفارة ترحيبا من الخليفة العباسى المنصور وعاد السفراء بعد ثلاث سنوات بصحبة رسل من قبل الخليفة المنصور، يحملون الهدايا إلى بيبن. وأنزل بيبن القصير رسل الخليفة فى قصر مرسيليا، واستقبلهم أحسن استقبال، ودعاهم إلى قضاء فصل الشتاء فى مدينة متز باللورين ـ التى كانت يومئذ منزل البلاط الفرنجى، ثم دعاهم إلى التنزه والإقامة بعض الوقت فى قصر سلس Sels على ضفاف نهر اللوار ـ فى فرنسا الحالية ـ ثم عاد السفراء إلى بغداد عن طريق مرسيليا أيضا، ومعهم طائفة من التحف والهدايا للخليفة المنصور وذلك فى عام ١٥١هـ/ ٧٦٨م.

استمر تبادل السفراء والهدايا واستمرت علاقات الصداقة بين العباسيين والفرنجة فى عهد خلفاء المنصور وبيبن، وبلغت الذروة فى عهد هارون الرشيد وشارلمان؛ فقد كان التقارب بينهما

كنيسة القيامة – بدير لحم

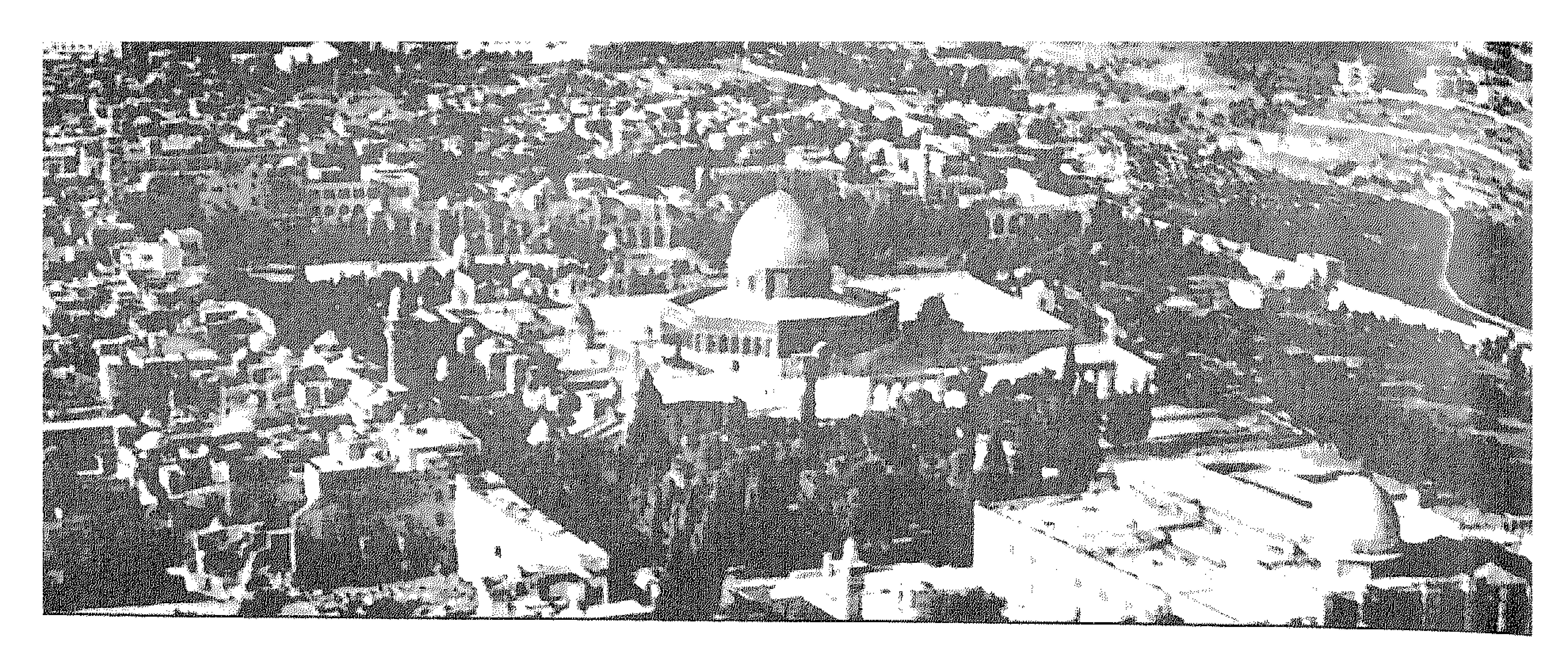
ضرورة ملحة حتمتها ظروف كلا العاهلين وأهدافهما؛ فلا زال العدو المشترك ممثلا فى الدولة البيزنطية والأمويين فى الأندلس قويا صلبا متحديا لكلا الرجلين.

فبالنسبة لشارلمان ساءت العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية بشكل كبير فى عهد الرشيد، وذلك بسبب غضب بيزنطة لتتويج شارلمان إمبراطورا فى عام ٨٠٠م، ورفضها الاعتراف به إمبراطورا، فقد جاء هذا التتويج طعنة نجلاء ـ كما سبق أن ذكرنا ـ سددتها البابوية فى صدر الدولة البيزنطية. هذا إلى جانب تنازع بيزنطة فى عهد الإمبراطور نقفور (٨٠٢ ـ ٨١١م) مع الفرنجة على إقليم دالماشيا على خليج البندقية، فضلا عما دبره البيزنطيون من مؤامرات ضد الفرنجة فى جنوب إيطاليا وقتذاك، يضاف إلى ذلك العداء بين البابوية حليفة شارلمان وبين الإمبراطورية البيزنطية وبطريرك القسطنطينية حول السيادة الروحية على العالم المسيحى، ورغبة البابا فى تقوية صلاته مع بطاركة الشرق ليقفوا إلى جانبه فى صراعه مع بطريرك القسطنطينية على الزعامة الروحية على العالم المسيحى.

كما كانت مناهضة الدولة الأموية فى الأندلس شطرا من سياسة شارلمان العامة، فقد كان يرغب فى فتح الأندلس ويحتاج إلى تأييد الخليفة العباسى ليكون له حق شرعى فى التدخل فى الأندلس، ولئلا يقف عرب الأندلس فى وجهه كعدو للإسلام، مثلما فعلوا فى عام ٧٧٨م، حين هاجم شارلمان شمال الأندلس وهزم فى معركة رونسفالة، وأدرك أن الأندلس فى عهد الأمويين لا يمكن أن تؤتى بسهولة، هذا فضلا عن رغبته فى الانتقام لما أصابه وأصاب جيشه فى كارثة رونسفالة ٧٧٨م.

أما بالنسبة لهارون الرشيد، فقد كان فى نزاع مستمر مع بيزنطة وشن حروبا عديدة ومستمرة على أملاكها برا وبحرا، واضطرت الإمبراطورة البيزنطية إيرينى (٧٩٧ ـ ٨٠٢م) إلى عقد الصلح معه ودفع الإتاوة، ولكن خليفتها نقفور (٨٠٢ ـ ٨١١م) امتنع عن دفع الإتاوة وأرسل إلى هارون الرشيد رسالة شديدة اللهجة فى عام ٨٠٣م، ورد عليه الرشيد كما سبق أن فصلنا ـ بأن الجواب ما تراه دون أن تسمعه؛ ولذلك رغب هارون الرشيد فى محالفة شارلمان منافس البيزنطيين، ورغب أيضا فى تجنب قيام حلف هجومى بين الفرنجة والبيزنطيين ضد بلاده؛ فضلا عن رغبته فى إضعاف النفوذ الروحى والمعنوى للبيزنطيين بين مسيحى الشام والجزيرة.

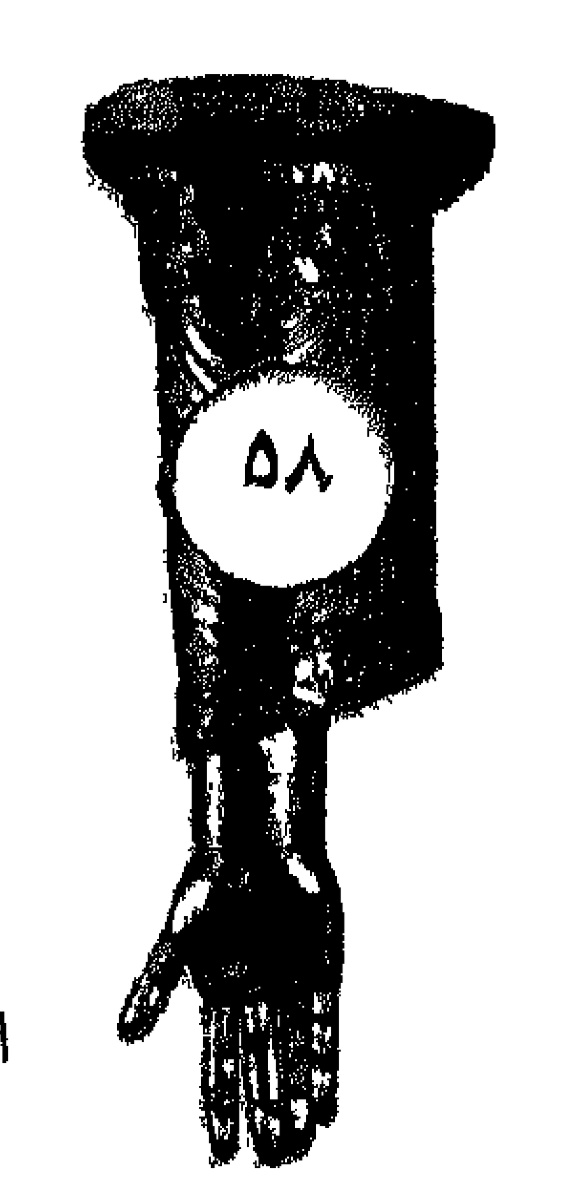
كذلك أراد الرشيد بتحالفه مع شارلمان أن يضعف من شأن الأمويين فى الأندلس، وأن يقض مضاجعهم، وخاصة بعد أن أخفقت جهود المنصور فى القضاء عليهم، وكان الرشيد يعتقد أن شارلمان يستطيع أن يشغل الأمويين بتهديده المستمر، فلا يتطلعون إلى مزيد من النفوذ فى بلاد المغرب وفى إفريقية والشرق.



القدس - بيت المقدس

ويضاف إلى العدو المشترك الذى قرب بين هارون الرشيد وشارلمان، أن الأخير كانت لديه أسباب دينية تدعوه إلى التقرب من هارون الرشيد، ومنها ما يذكره إينهارد - مؤرخ شارلمان - إذ يقول: «ولعل السبب الذى جعل شارلمان يحرص حرصا شديدا على إقامة العلاقات الودية مع ملوك ما وراء البحار هو أنه كان يرجو حسن معاملتهم لرعاياهم المسيحيين الذين يعيشون فى ظل حكمهم»، كذلك رغبة شارلمان فى تأمين حجاج بيت المقدس، وتسهيل طرق الحج إلى الأراضى المقدسة، وتكوين نفوذ معنوى وروحى له فى تلك البقاع، إذ لم يكن شارلمان يهتم فقط بالسكان المحليين وحدهم بل برعاياه الذين هاجروا إلى الأراضى المقدسة، ومكثوا فيها مدة طويلة.

هذا، ويرى فريق من الباحثين أن شارلمان كان يهدف من وراء محالفة الرشيد تحقيق أطماع اقتصادية، فقد أنشأ أسطولا فى البحر المتوسط، ومد نفوذه فى جزر البليار وسردينيا وجنوب إيطاليا، وحاول السيطرة على البندقية ودالماشيا كجزء من خطته للسيطرة على مصادر الثروة التجارية التى حرمت منها بلاده بسبب بيزنطة، كما كان التقارب بينه وبين العباسيين يحمل فى طياته مشروعات اقتصادية.



السفارات المتبادلة بين هارون الرشيد وشارلمان

من مظاهر الصداقة والتحالف التى ربطت بين هارون الرشيد وشارلمان تلك السفارات المتبادلة بينهما، وأهمها:

السفارة الأولى: سفارة شارلمان إلى هارون الرشيد عام ١٨٠هـ/ ٧٩٧م:

أرسل شارلمان أولى سفاراته إلى هارون الرشيد فى عام ١٨٠هـ/ ٧٩٧م، وكانت السفارة تتألف من ثلاثة أفراد اثنين من الفرنجة وهما سيجيموند Sigimund ولانتفريد Lantfrid، والثالث يهودى يدعى إسحاق ليتولى أعمال الترجمة، ويذكر فازيليف Vasiliev أن إسحاق هذا كان تاجرا وكثيرا ما عمل من قبل فى جلب بعض السلع الثمينة من فلسطين إلى شارلمان.

وعندما وصلت هذه السفارة إلى بغداد قدم السفراء كتب ملك الفرنجة وهديته إلى الرشيد، فأكرم الرشيد وفادتهم ورحب بصداقة شارلمان.

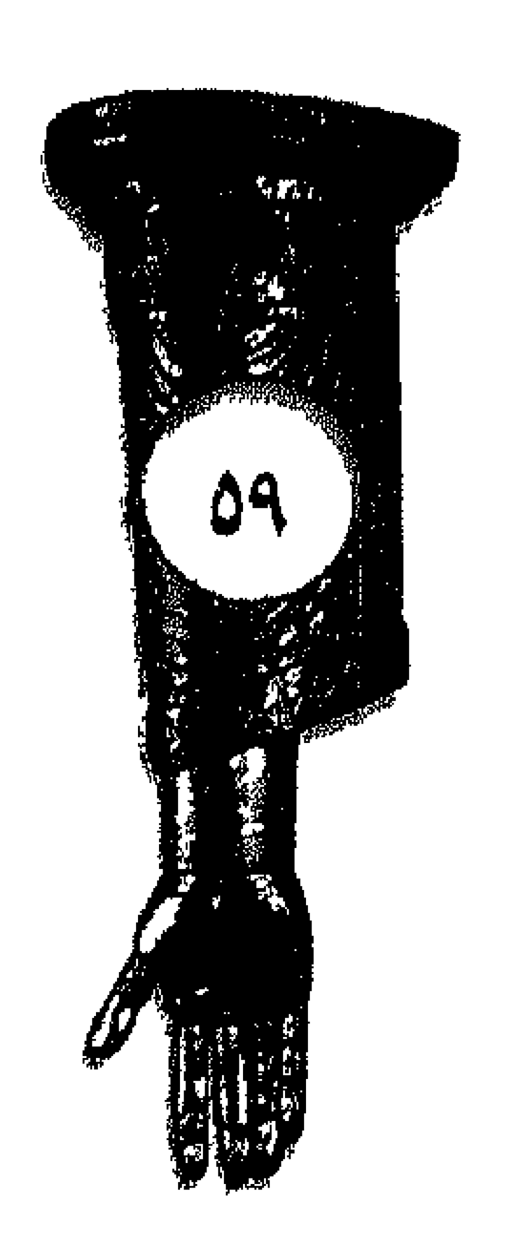
ويروى إينهارد ـ مؤرخ شارلمان ـ بشأن هذه السفارة ما يلى: «وقد كانت علاقاته (يقصد شارلمان) ودية مع هارون.. الذى حكم معظم بلاد الشرق.. فقد آثر هذا الأمير مودة شارلمان على كل ملوك الأرض وحكامها، وبنى علاقته على الاحترام والكرم».

أما فيما يتعلق بسفراء شارلمان إلى هارون الرشيد وأهداف شارلمان وأغراضه من وراء هذه السفارة، يذكر إينهارد ما يلى: «وعندما قام السفراء ـ الذين أرسلهم شارلمان لزيارة القبر المقدس، مكان قيام سيدنا ومخلصنا ـ بالمثول بين يدى هارون ومعهم الهدايا، نقلوا له رغبة سيدهم شارلمان، غير أن الرشيد لم يمنحهم ما طلبوه فقط، وإنما أعطاهم حق امتلاك القبر المقدس، تلك البقعة المقدسة المباركة».



فسيفساء بأرضية كنيسة المهد المقدسة

ثم يذكر إينهارد فى موضع آخر: «وقبل ذلك بسنوات قليلة كان شارلمان قد طلب من هارون الرشيد فيلا».



تظهر رواية إينهارد قيام علاقات ودية بالفعل بين العاهلين الكبيرين شارلمان وهارون الرشيد، غير أنها لا تظهر فى جلاء أهداف شارلمان من وراء سفارته هذه إلى الرشيد اللهم إلا المجيء من الشرق بفيل، وذلك لندرته فى أوربا مما دفع شارلمان إلى طلبه. أما ما جاء على لسان إينهارد من أن السفراء نقلوا له رغبة سيدهم شارلمان، غير أن الرشيد لم يمنحهم ما طلبوه فقط، وإنما أعطاهم حق امتلاك القبر المقدس، فهى عبارة غامضة لا تحدد بوضوح ما طلبه شارلمان من هارون الرشيد، تلك المطالب التى لباها الخليفة لشارلمان.

ولعل ما طلبه شارلمان كان تسهيل سبل الحج إلى بيت المقدس، والحصول على امتيازات للحجاج الغربيين القادمين إلى فلسطين، خاصة وأن شارلمان كان قد أمر الوفد بالمرور على بيت المقدس، وزيارة القبر المقدس قبل الذهاب إلى بغداد، ويبدو أنه كان يهدف من وراء هذه الزيارة التعرف على أحوال زوار الأراضى المقدسة من المسيحيين الغربيين خاصة، ثم التوسط لدى الخليفة هارون فى تسهيل زيارتهم للأماكن المقدسة حتى يتزايد عدد الزوار القادمين إلى البقاع المقدسة من الغرب.

أما عن رواية راهب دير سانت جال بشأن سفارة شارلمان لهارون الرشيد، فتذكر أن الرشيد قال لسفراء شارلمان: «سأجعل له الأرض المقدسة، وسوف أكون نائبه، وسأجعله يرسل إلىَّ



كنيسة أسفل جبل الزيتون

مبعوثيه كلما أراد وسوف يجدنى نائبا أمينا». ويتضح من هذه العبارات أن شارلمان لم يزعم لنفسه مطلقا حقوق السيادة فى بيت المقدس، ولكن يجوز له أن يرسل سفراء، وأن يجرى الهبات والعطايا والصدقات للكنائس فى الشرق كلما أراد.

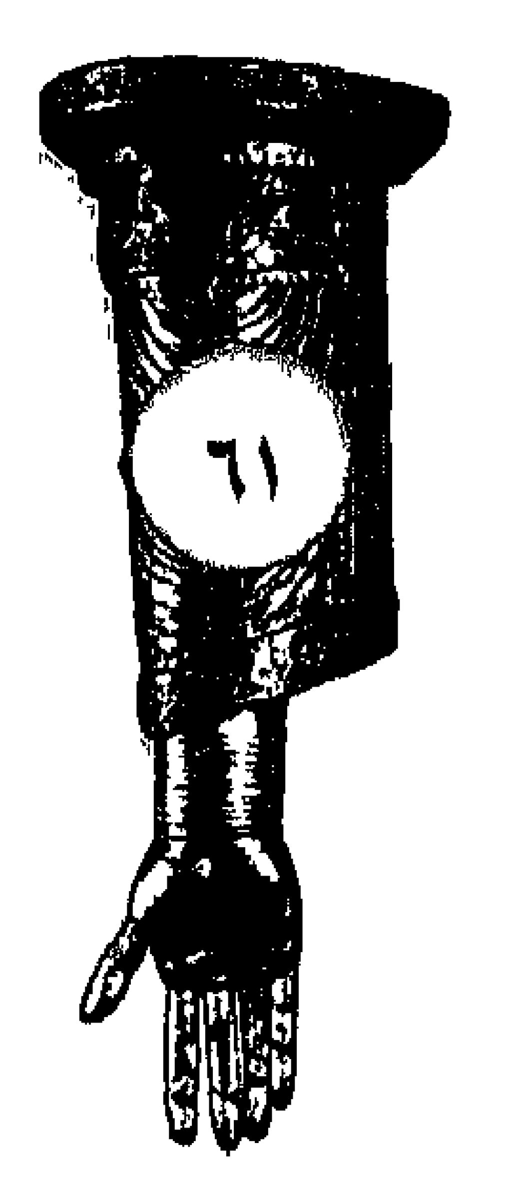
على أية حال استغرقت سفارة شارلمان الأولى أربع سنوات (١٨١ ـ ١٨٥هـ/ ٧٩٧ ـ ٨٠١م) مات أثناءها كل من سيجيموند ولانتفريد ولكن بعد أن أنجزا مهمتهما، ورجع إسحاق وحده مع الفيل، وقد استغرقت السفارة هذه المدة الطويلة بسبب الطرق الصعبة التى سلكتها؛ فقد كان انتقال السفراء عبر المسالك والطرق البحرية التى تسيطر عليها بيزنطة بين الشرق والغرب صعبا للغاية؛ ولهذا سلكت هذه السفارات طرقا طويلة ملتوية من الإسكندرية إلى شمال أفريقية ثم إلى الموانئ الواقعة تحت سيادة الفرنجة فى إيطاليا.

وقد ترتب على سفارة شارلمان هذه إلى الرشيد نتائج هامة خاصة بالنسبة للمسيحيين فى الأراضى المقدسة، مما يؤكد أن أهداف السفارة أو أهداف شارلمان من وراء إرسال هذه السفارة كانت خاصة بالحجاج الغربيين القادمين إلى الأراضى المقدسة ومسيحيى هذه البلاد، ومن أهم هذه النتائج:

أولا: ترتب على حسن التفاهم وعلاقات المودة التى ربطت شارلمان بهارون الرشيد، أن شجع هارون شارلمان على إرسال الهبات والصدقات إلى فلسطين، فكان يرسل عشر دخله، وكذلك عشور بعض الأتقياء إلى المؤسسات الدينية فى بيت المقدس.

ثانيا: شجع الخليفة هارون شارلمان على إنشاء عدد من المؤسسات الخيرية فى بيت المقدس، فقد قام شارلمان بتشييد ديرين لاتينيين فى مدينة بيت المقدس أحدهما على جبل الزيتون والآخر بالقرب من القبر المقدس. كما قام شارلمان بتشييد مستشفى للحجاج اللاتينيين فى بيت المقدس أيضا، وأجرى عليها الأوقاف، كذلك شيد خانا أو فندقا ـ جنوب كنيسة القيامة ـ للحجاج والمسافرين القادمين من مملكته، فضلا عن مكتبة فى كنيسة القديسة ماريا، وأوقف عليها كذلك بعض الحدائق والبساتين.

ثالثا: وصول عدد كبير من الحجاج فى عصر شارلمان إلى الأراضى المقدسة ومن بينهم عدد من النساء. فقد ورد فى رسالة منسوبة لمؤلف مجهول فى بداية القرن التاسع للميلاد «أن سبع عشرة امرأة من إمبراطورية الملك شارل وهبن أنفسهن لخدمة المكان المقدس، ومن ضمنهن امرأة من إسبانيا».



رابعا: شعر المسيحيون الأرثوذكس فى بيت المقدس بقوة شارلمان الكاثوليكى، وأهمية الاستناد إليه، فبعثوا له برموز تشريفية تقديرا منهم له، كما قدم له بطريرك بيت المقدس الطاعة والولاء.

يتضح من النتائج السابقة أن أهداف شارلمان كانت أهدافا دينية فى المقام الأول وهذا ما أكده إينهارد من أنه (أى شارلمان) كان يرجو حسن معاملة المسلمين فى الشرق لرعاياهم المسيحيين الذين يعيشون فى ظل حكمهم، كما سبق أن ذكرنا.


السفارة الثانية: سفارة الرشيد الأولى إلى شارلمان ١٨٥هـ/ ٨٠١م:

يذكر إينهارد بشأن هذه السفارة أنه عندما عاد السفراء (أى سفراء شارلمان) إلى بلادهم، بعث الرشيد معهم سفراءه إلى شارلمان، يحملون له الهدايا الفاخرة، إضافة إلى منسوجات وعطور ومنتجات قيمة أخرى من البلاد الشرقية أو من بلاد الشرق. وكان من جملة هدايا الرشيد لشارلمان أيضا الفيل، ويذكر إينهارد هنا «وبعث الرشيد إليه بالفيل الوحيد الذى يملكه».

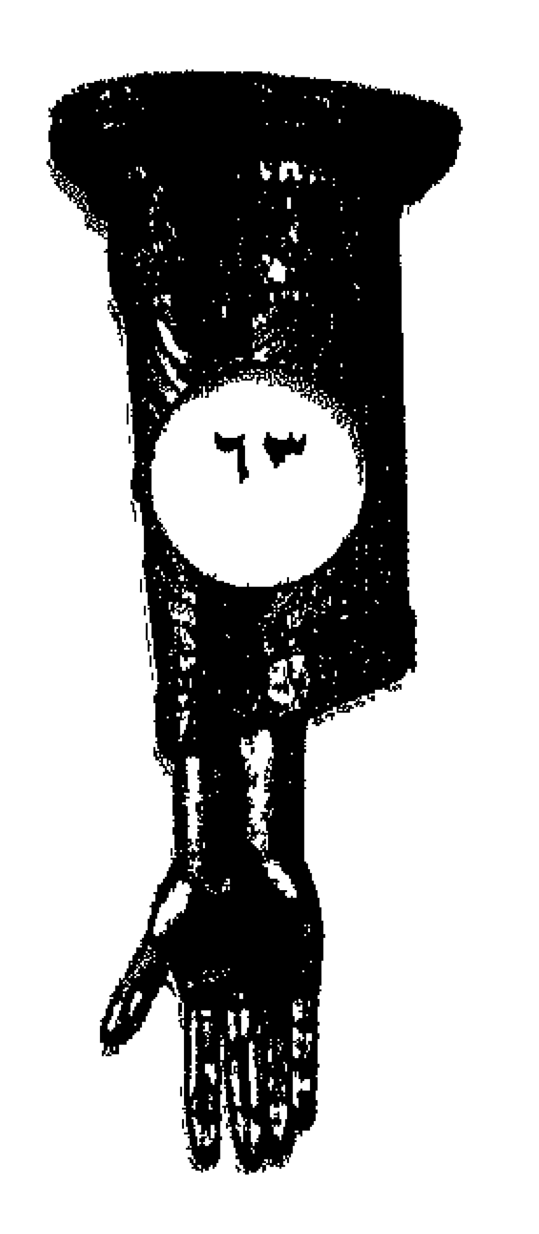
ولكن الرواية التى أوردتها الحوليات الفرنجية أكثر تفصيلا من رواية إينهارد بشأن هذه السفارة، فقد جاء فيها تحت حوادث عام ٨٠١م ما يلى: «أخبر شارلمان بوصول سفراء هارون. . . إلى ميناء بيزا، فاستقبلهم شارل فى بيومونتيه ـ فى مقاطعة تورين بإيطاليا حاليا ـ، وكان عددهم اثنان ـ ولم تذكر الرواية أسماءهما ـ أحدهما كان سفير هارون الرشيد وهو فارسى من الشرق، والآخر عربى من إفريقية سفير الأمير إبراهيم بن الأغلب». وتتابع الرواية فتذكر أن شارل علم منهما أن اليهودى إسحاق ـ وهو أحد أعضاء سفارة شارلمان إلى هارون الرشيد) قد عاد إلى إفريقية ومعه هدايا ثمينة، وعلم أيضا أن سفيريه سيجيموند ولانتفر يد ـ اللذين أرسلهما من قبل بأربع سنوات قد توفيا فى الطريق.

كذلك تذكر الرواية التى أوردتها الحوليات الفرنجية أن الإمبراطور أمر كاتبه الخاص ويدعى (إيركامبل) بالتوجه إلى ليجوريه Ligurra ميناء بيزا ليجهز السفن، وأبحر مع السفيرين الجديدين إلى إفريقية لإحضار إسحاق وما معه من الهدايا.

وتذكر الحوليات الفرنجية كذلك أن الخليفة أهدى فيلا إلى شارلمان، ووصل إسحاق من إفريقية ومعه الفيل، ونزل فى بورتوفينر Portovenere. . . ونظرا لأن الوديان كانت مغطاة بالثلوج فلم يستطع الفيل اجتياز جبال الألب، فمكث الشتاء كله فى فرسيلى Vercelli، وفى يوليو ٨٠٢م فقط تمكن إسحاق من جلب الفيل وبقية هدايا ملك الفرس (أى هارون) إلى مدينة آخن. . . والفيل اسمه أبو العباس.



هدايا الرشيد لشارلمان



وكان هذا الفيل مجهزا بأفخر جهاز، ومن المعروف أن أوروبا كانت تجهل الفيل حتى ذلك الوقت، وكان فيلا عظيما أبيض، وقد ظل هذا الفيل يعتبر لمدة تسع سنوات أجمل ما يتصف به الثقل الحربى للإمبراطور شارلمان من أبهة وعظمة، وقد استخدمه شارلمان فى الحرب بينه وبين الدانماركيين.

السفارة الثالثة: سفارة شارلمان الثانية إلى هارون الرشيد ١٨٦هـ/ ٨٠٢م:

سر شارلمان بنتيجة سفارته الأولى إلى الرشيد، فأوفد إليه سفارة أخرى فى عام ١٨٦هـ/ ٨٠٢م، وكان من بين أعضاء هذه السفارة رجل يدعى رادبرت Radbert، وعادت السفارة فى عام ٨٠٦م، بعد غياب أربع سنوات، فتذكر الحوليات الفرنجية تحت حوادث عام ٨٠٦م «والآن كما فى المرة الأولى نجدهم (أى سفراء شارلمان) وقد عادوا إلى الوطن بعد غياب أربع سنوات، وفى الوقت الذى كان الإمبراطور البيزنطى نقفور قد جهز فيه أسطولا بقيادة النبيل نيقتاس، وأرسله من أجل إرجاع دالماتيا إلى بيزنطة، نجد سفراء شارل العائدين من مقابلة ملك الفرس (أى هارون الرشيد) قد استطاعوا المرور بسفنهم، التى تسللوا بها غير بعيد عن الأسطول البيزنطى، ثم نزل السفراء فى ميناء تريفيزو فى أواخر الخريف على الأكثر؛ وذلك لأنهم وصلوا إلى آخن فى السنة التالية.

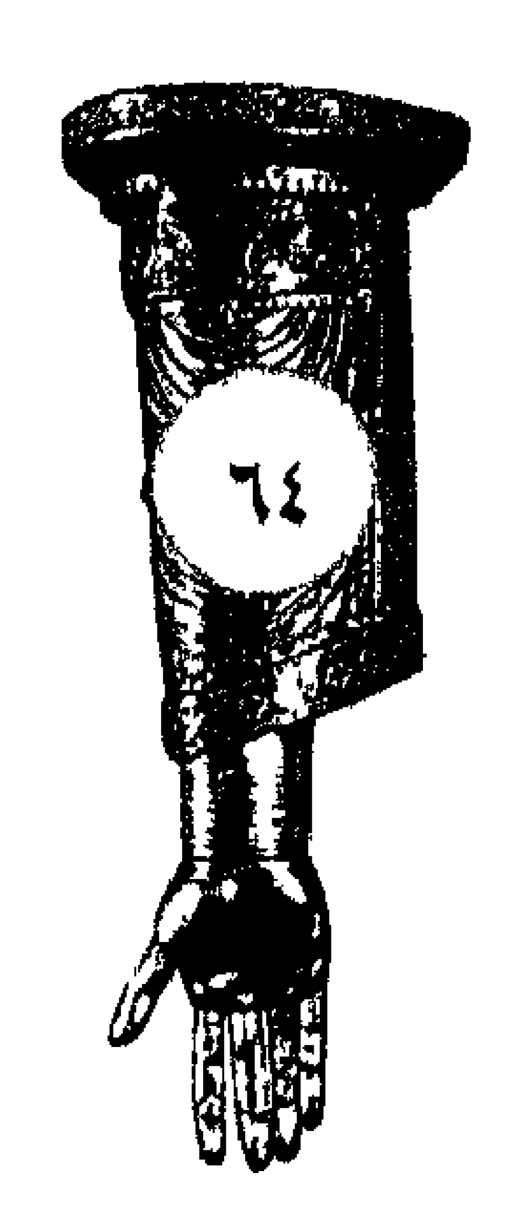
يتضح من هذه الرواية أن السفارة أفلتت وهى فى طريق عودتها إلى إيطاليا من الوقوع فى أسر الأسطول البيزنطى، وواصلت مسيرها بأقصى سرعة حتى بلغت مدينة تريفيزو الإيطالية.

وتذكر الحولية الفرنجية أيضا تحت حوادث عام ٨٠٧م أن رادبرت سفير شارل إلى الخليفة هارون قد مات وهو فى طريق العودة.

وقدم البعض أسبابا لظاهرة موت بعض السفراء وخاصة سفراء شارلمان وهم فى طريق العودة إلى بلادهم، ومنها مخاطر الحرب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية فى البحر المتوسط، ووجود الأسطول البيزنطى فى مياه هذا البحر مما يهدد المسافرين من ناحية، أو انتشار الأوبئة فقد انتشر الطاعون فى القسطنطينية فى القرن الثامن عن طريق جزيرة صقلية، من ناحية أخرى، أو لطول الرحلة واختلاف المناخ بين أراضى الدولة العباسية ودولة الفرنجة من ناحية ثالثة.

السفارة الرابعة: سفارة الرشيد الثانية إلى بلاط شارلمان (١٩٠هـ/ ٨٠٥م):

نستطيع الوقوف على أخبار هذه السفارة من خلال الحوليات الفرنجية التى تذكر تحت حوادث عام ٨٠٧م خبر وصول سفارة من قبل هارون الرشيد إلى مدينة آخن، وكانت السفارة تتألف هذه المرة من رسول الخليفة ويدعى (عبد الله) وراهبان هما جريجورى وفيليكس Felix



بصفتهما رسولا فوما أو توما بطريرك بيت المقدس، وكان الراهب الأول ألمانى المولد، كما كان رئيسا لدير جبل الزيتون فى فلسطين، وقد أحضروا معهم الهدايا. وأبقى شارل السفير والراهبين مدة من الزمن ـ كما تذكر الحوليات ـ ثم أرسلهم إلى إيطاليا، وطلب إليهم المكوث هناك لحين إبحار السفن.

ويلاحظ على رواية الحوليات الفرنجية أنها لا تذكر شيئا عن الواجبات الدبلوماسية لهذه السفارة، بل تسكت سكوتا مطبقا، فى حين تفصل للهدايا التى أرسلها الخليفة هارون الرشيد إلى شارل، والتى قدمت كلها إليه فى مدينة آخن، وتذكر الحوليات هذه الهديا على النحو التالى:

١ ـ سرادق كبير جدا وخيمة جميلة، وكلاهما مصنوعان من قماش قطنى مزين بمختلف الألوان.

٢ ـ كثير من الأقمشة الحريرية الثمينة.

٣ ـ عطور ومراهم وبلسم، والبلسم مادة صمغية تستخرج من بعض الأشجار ولها رائحة ذكية وتستخدم فى البخور.

٤ ـ شمعدانان رائعان من البرونز.

ويذكر بارتولد أن الأستاذ سميرنوف زود بمعلومات أخرى عن بقية الهدايا التى توجد فى مختلف متاحف أوربا، ومن جملتها:

١ ـ قرن من العاج بشكل بوق محفوظ الآن فى آخن.

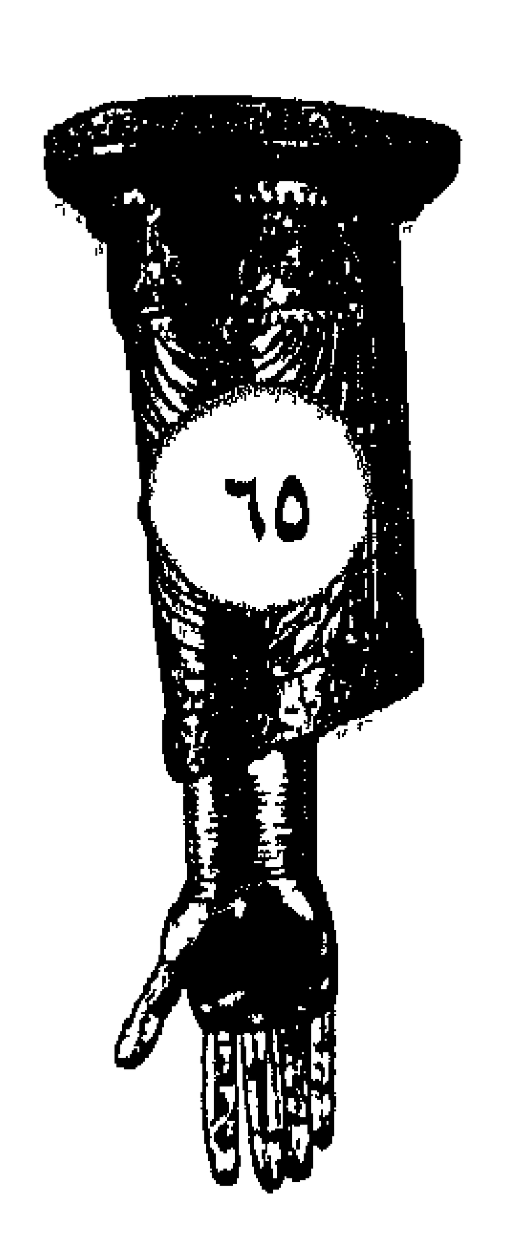
٢ ـ سيف من محفوظات Schatz hammer فى ڤيينا.

٣ ـ إناء ذهبى مطعم بمختلف القطع الزجاجية الملونة، وعليه صورة كسرى الأول بتاجه مرسوما على كريستال جبلى، ومحفوظ فى دير القديس ديونيس.

٤ ـ إبريق من الذهب.

٥ ـ شطرنج شرقى محفوظ فى دير القديس ديونيس.

وفيما يتعلق بهذا الشطرنج، فقد ذكر البيرونى أن الرشيد أهدى شارلمان ملك الفرنجة ضمن ما أهدى رقعة شطرنج. ويقال أن قطعا من هذا الشطرنج ما زالت باقية حتى الآن، وجزء منها محفوظ إما فى المكتبة الوطنية بباريس وإما بمتحف الأوسمة بباريس كذلك. أما البعض الآخر من هذه القطع فما زالت محفوظة فى دير القديس ديونيس بباريس كذلك ضمن ما تبقى من هدايا أرسلها الرشيد إلى شارلمان. وتحتفظ كنيسة «سان دميس Saint Damis» أيضا بقطعة نادرة من



العاج ورد فى سجلات هذه الكنيسة أن هذه القطعة كانت من بين ذلك الشطرنج الرائع الذى تلقاه شارلمان ملك الفرنجة هدية من الخليفة العباسى هارون الرشيد. وهذه القطعة تمثل ملكا يجلس على عرشه على ظهر فيل يحيط به الحاشية والفرسان، كما يحمل الفيل على خرطومه بهلوانا، وقد نقش على قاعدة هذه القطعة اسم صانعها بخط كوفى بسيط على النحو التالى: «من عمل يوسف الباهلى».

ويتضح من ذلك أن الذى أبدع صناعة الشطرنج الذى أرسله هارون الرشيد إلى شارلمان نقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى.

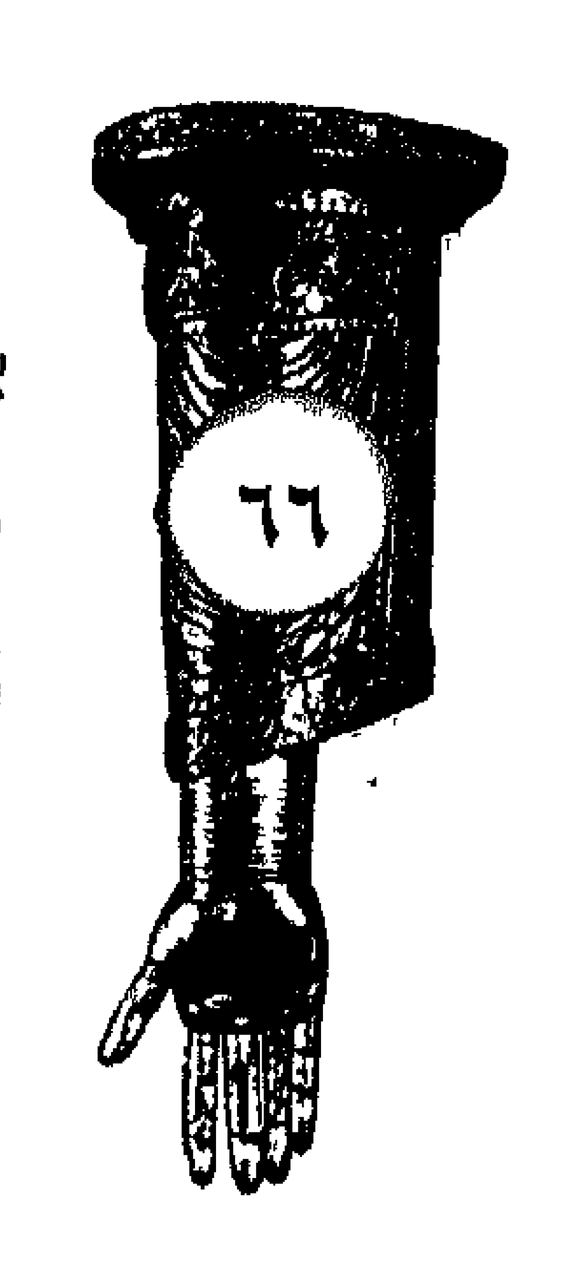
على أن أهم الهدايا التى أرسلها الرشيد إلى شارلمان والتى أغفلتها الحولية الفرنجية كانت الساعة المائية البرونزية الدقاقة، التى أذهلت شارلمان لجمالها ودقة مواعيدها، وانضباط أجراسها، والتى ظن الغرب أنها آلة تعمل بفعل السحر، وأن فيها شيطانة تحركها. ويصف ديفز هذه الساعة بقوله: «الساعة المائية الغريبة التى تدق الساعات، وفى دائرتها اثنتا عشرة نافذة تخرج منها فى الساعة الثانية عشرة فرسان، وما كادوا يخرجون حتى تغلق وراءهم النوافذ ثم تنفتح من جديد لكى يعودوا».

فى حين يصفها البعض الآخر على النحو التالى: «هى عبارة عن مجموعة دوائر تمثل البروج والشمس والقمر تدور متناوبة بسرعة ثابتة، عليها عصافير تطلق من مناقيرها كرات صغيرة تقع على صنوج فتسمع دقات الساعة كل ساعة، أما ما يدير حركة الساعة المائية فكانت فى العادة عوامة تغطس بسرعة ثابتة فى خزان ماء، وقد ربط أعلاها خيط يدور حول بكرة كبيرة هى المحرك الرئيس للساعة، وهى تقوم عن طريق بكرات أخرى بتحريك دائرة البروج ساحبة معها مركبة صغيرة ذات دواليب مثبت عليها قضيب عمودى، هو الذى يحرك الشظايا الصفاقة.

وإن دلت هدايا هارون الرشيد إلى شارلمان عن شىء فإنما تدل أولا على علاقات المودة والمحبة والصداقة التى ربطت بين الرجلين، وثانيا تدل على ما بلغه المشرق الإسلامى فى العصر العباسى من شأو بعيد فى التقدم الحضارى وما كان يقدمه إلى الأسواق العالمية من صناعات ومنتجات راقية ثمينة تهاداها الخلفاء والأباطرة.

السفارة الخامسة: سفارة شارلمان الثالثة إلى هارون الرشيد (١٩١هـ/ ٨٠٧م):

أرسل شارلمان سفارته الثالثة إلى هارون الرشيد فى عام ٨٠٧م ولكنها وصلت فى الوقت الذى مات فيه هارون الرشيد، أى عام ١٩٣هـ/ ٨٠٩م عن عمر يناهز السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين، ويبدو أن الخليفة المأمون ابن هارون الرشيد قد أرسل سفارة فى عام ١٩٨هـ/ ٨١٣م ردا على سفارة شارلمان، إلا أنها وصلت بعد وفاة شارلمان فى عام ١٩٩هـ/ ٨١٤م.

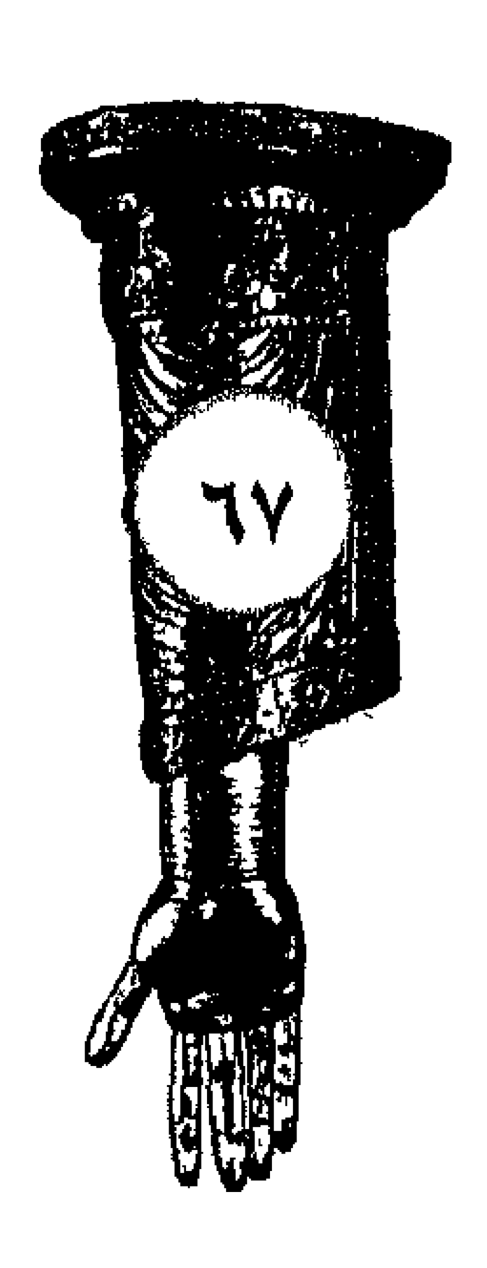


وعن وفاة شارلمان يذكر إينهارد، «اعتلت صحة شارلمان فى أواخر حياته بسبب المرض والشيخوخة، وقد أصابته حمى شديدة اضطرته إلى أن يأوى إلى فراشه، وفرض على نفسه صياما اعتاد أن يلتزمه حينما يُلَم به المرض أو تصيبه الحمى... ولكنه كان يقوى نفسه بجرعات من السوائل كان يحتسيها بين فواصل زمنية طويلة. وأخيرا وفى الساعة التاسعة من صباح الثامن والعشرين من يناير عام ٨١٤م توفى شارلمان بعد أسبوع من الحمى التى ألزمته الفراش، وكان فى الثانية والسبعين من عمره».

ورغم وفاة هارون الرشيد ومن بعده شارلمان، إلا أن التفاهم بين العباسيين والفرنجة ظل قائما ومستمرا حتى أوائل عصر المأمون وهذا ما تؤكده الرواية الفرنجية إذ تذكر «أن العلاقات الودية بين بغداد وآخن استمرت بعد وفاة الرشيد وشارلمان، وأن المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) ابن الرشيد بعث سفارة إلى لويس التقى (١٩٩ ـ ٢٢٦هـ/ ٨١٤ ـ ٨٤٠م) ابن شارلمان من بعده لتأكيد المودة والصداقة بينهما».

ويلاحظ على العرض السابق للسفارات المتبادلة بين هارون الرشيد وشارلمان، أن مصادرها كلها لاتينية، ويلاحظ أيضا صمت المصادر العربية صمتا مطبقا بشأن هذه السفارات والعلاقات التى ربطت هارون الرشيد بشارلمان؛ مما جعل بعض الدارسين المحدثين يتشككون فى صحة هذه السفارات ويعتبرونها نوعا من الوهم التاريخى، واتخذها بعضهم أيضا دليلا على عدم صحة هذه العلاقات أو تبادل تلك السفارات.

على أن صمت المصادر العربية لا يمكن أن



ينهض وحده دليلا على عدم صحتها، فليس يصلح فى مقام التدليل التاريخى، أن يرفض دليل إيجابى ومقبول عقلا من أجل دليل سلبى، كما أن رواية إينهارد مؤرخ شارلمان وكاتب سيرته والأثير لديه وكذلك الحوليات الفرنجية لم تترك لنا فرصة لاستبعاد قيام هذه الصلات، كما أن صمت المصادر العربية يحملنا على الاعتقاد فى أحد أمرين هما:

- إما أن هذه السفارات لم تكن من الخطورة فى شىء، ولم تتعد المجاملات الملوكية العادية، وهذا ما اتضح من العرض السابق.
- وإما أنها إذا صحت خطورتها كانت سرا من أسرار الدولة لا تجوز إذاعته أو تناقله.

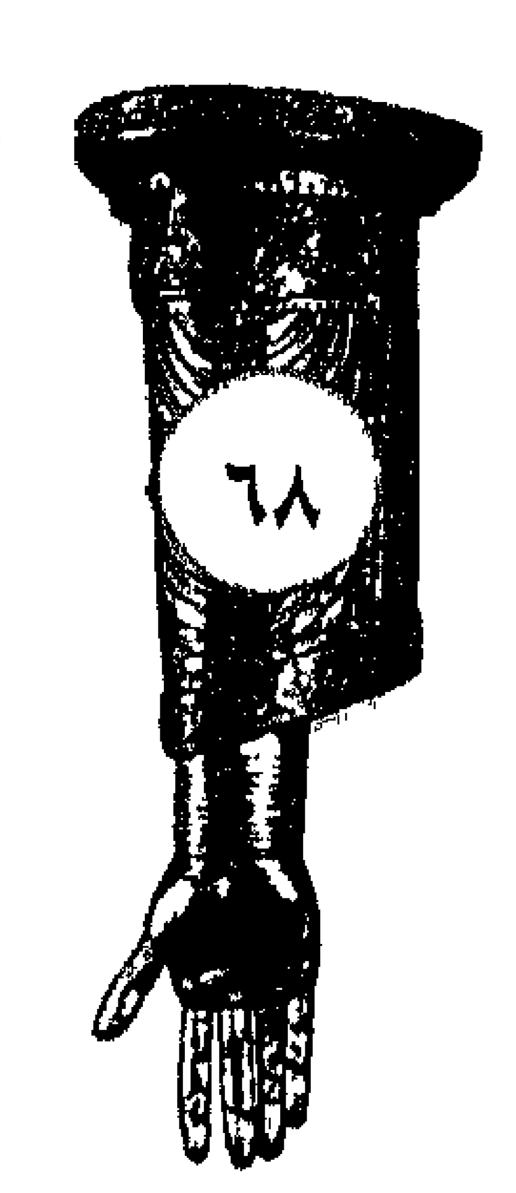
ولكن المرجح وجود نوع من الاتصالات الدبلوماسية وعلاقة المودة والصداقة التى ربطت هارون الرشيد وشارلمان، وإن لم تأخذ شكلا من أشكال التحالف السياسى إذ اقتصر الأمر على تبادل السفارات والهدايا دون أن يؤدى ذلك إلى تحقيق الأهداف المرجوة منها وهى: القضاء على الأمويين فى الأندلس وعلى الدولة البيزنطية فى القسطنطينية. ومن دلائل وجود هذه الصلات:

أولا: رد كل من الأمويين فى الأندلس والبيزنطيين على هذا التحالف بين هارون الرشيد وشارلمان ضدهما بتبادل السفارات وتوطيد أواصر الصداقة بينهما، وإن لم يؤد هذا التقارب بينهما بدوره إلى القيام بأى عمل عسكرى مشترك ضد العباسيين أو ضد دولة الفرنجة.

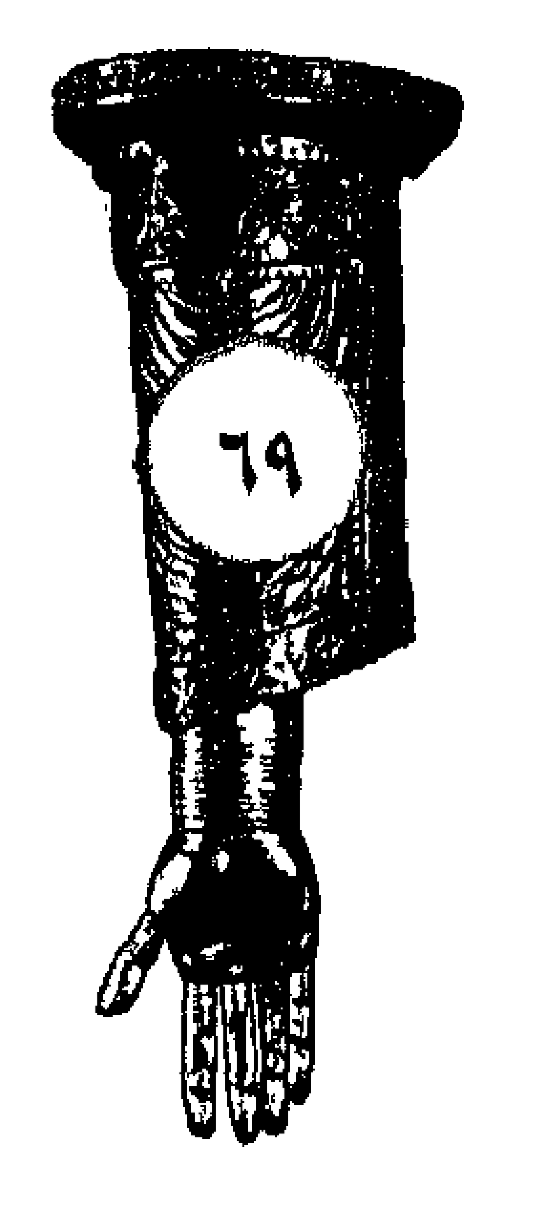
ثانيا: كانت هناك ثمة مصالح سياسية عظيمة تقرب بين سياسة الدولة العباسية وسياسة شارلمان، وليست مصالح سياسة فحسب بل ومصالح دينية فقد أتت هذه السفارات بنتائج دينية هامة لصالح الحجاج المسيحيين الغربيين القادمين إلى الشرق بل وصالح مسيحى الشرق كذلك.

ثالثا: الهدايا المتبادلة بين الرجلين والتى لا يزال بعضها موجودا حتى اليوم ومحفوظا فى باريس فى المكتبات أو الأديرة أو الكنائس؛ وأهمها بقايا الشطرنج؛ تنهض دليلا على قيام هذه العلاقات الودية بين الجانبين.

وتجدر الإشارة إلى أن البعض يرجح وجود نوع من الصلات بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة فى عهد هارون الرشيد وشارلمان، ولكنها ليست صلات سياسية بل هى صلات تجارية، والمسئول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب، ولعلهم من اليهود الرازانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الإسلامية والصين



كمـا بيَّن ابن خرداذبة والذين عرفـوا فى غرب أوروبا باسم Radanites نسبة إلى نهر الرون؛ لأن مـراكزهم كانت فى حـوض هذا النهر. وخاصـة أن من أساليب التجـار فى ذلك الحين أن يدعوا بأنهم سفـراء لتسهـيل مصالحـهم. على كل حال فهـذا تأكيد أيضـا على صحـة وجود صلات وعـلاقات مودة بين هارون الرشـيد وشارلمان وبين بلديهما.



قائمة المصادر والمراجع

- ابن كثير (إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى، ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) البداية والنهاية، المجلد الخامس. حققه وراجعه وعلق عليه محمد عبد العزيز النجار، القاهرة ١٩٩١م.

- إبراهيم على طرخان، المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٦م.

- إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة وتعليق وتقديم عادل زيتون، دمشق ١٩٨٩م.

- بارتولد، دراسات فى تاريخ فلسطين فى العصور الوسطى، ترجمة عزيز حداد، بغداد ١٩٧٣م.

- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٧٣م.

- ديفز، كارلس، شارلمان، ترجمة السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٥٩م.

- سليمان ضفيدع الرحيلى، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة فى عهد الخليفة هارن الرشيد والإمبراطور شارلمان، الرياض ١٩٨٧م.

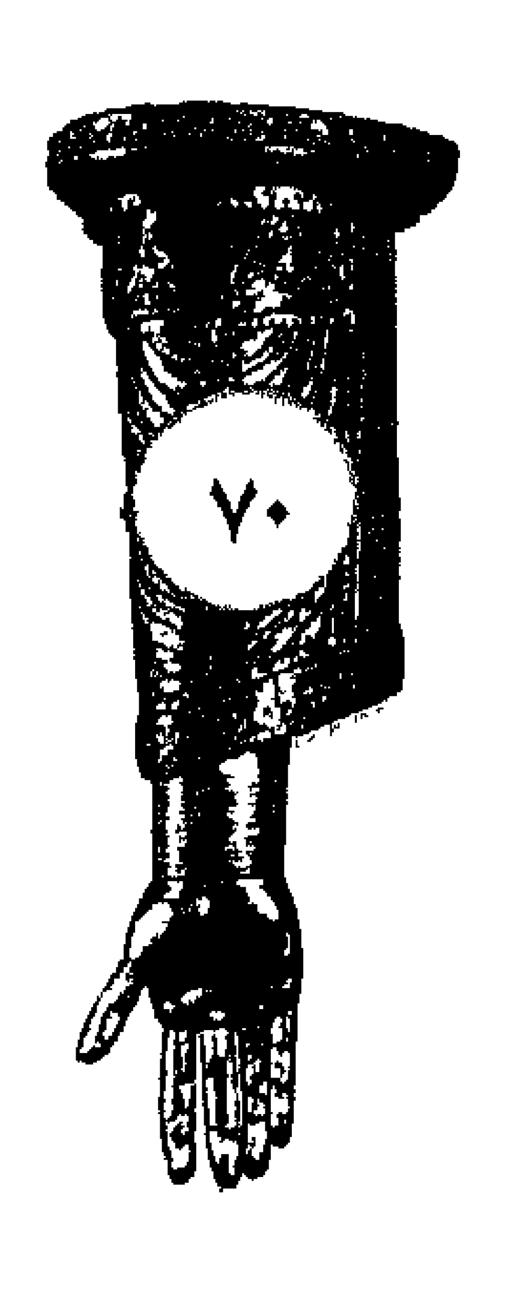
- السيد الباز العرينى، «بعض معالم عهد شارلمان» بحث منشور فى المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثامن، سنة ١٩٥٩م، ص١٣١ ـ ١٥٥.

- شاكر مصطفى، دولة بنى العباس، الجزء الثانى، الكويت ١٩٧٣م.

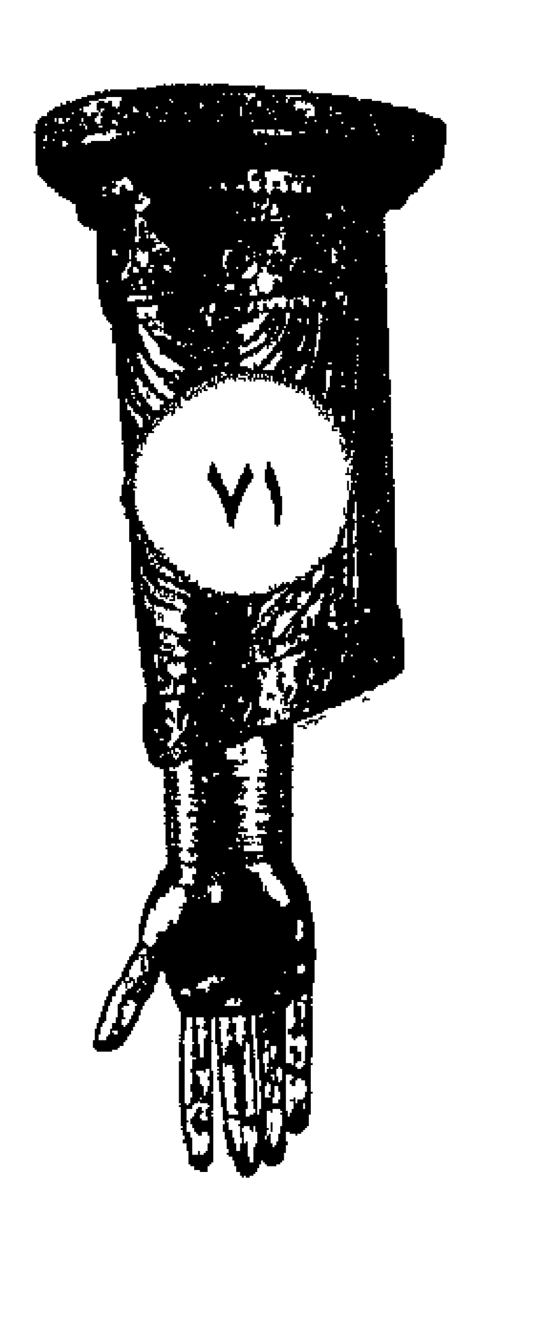
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، بيروت ١٣٥٢هـ.

- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير، ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثامن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٩م.

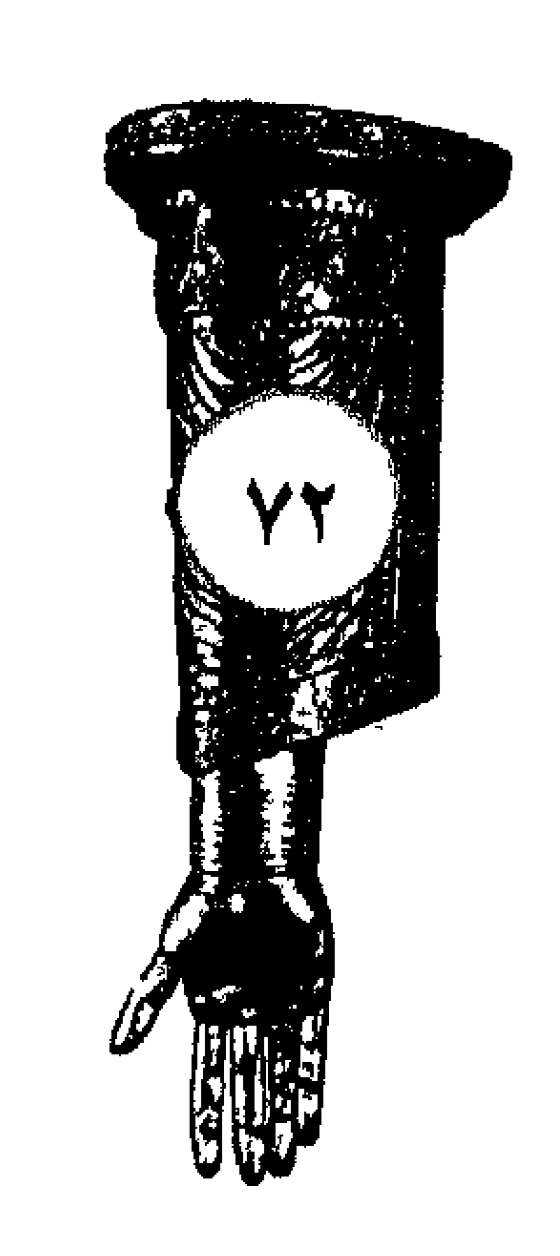
- عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، دراسة تاريخية اجتماعية سياسية، جزءان، بيروت ١٩٥٦م.



- عبد العزيز الدورى، العصر العباسى الأول، دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى، بغداد ١٩٤٥م.
- عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب تجارية - ثقافية - صليبية، ترجمة فيليب صابر سيف، القاهرة ١٩٧٢م.
- عطية القوصى، تاريخ الدولة العباسية، القاهرة بدون تاريخ.
- ـــــــــ ، المسلمون والشطرنج دراسة تاريخية، القاهرة ١٩٨٥م.
- لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٩م.
- لويس، أرشيبالد، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م.
- محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٦٢م.
- ـــــــــــــــ، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة ١٩٧٠م.
- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين، ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) - مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت ١٩٨٢م.
- F.W. Buckler, M. A., Harun, Al. Rashid andCharles The Great, Cambridge 1931.


٧١

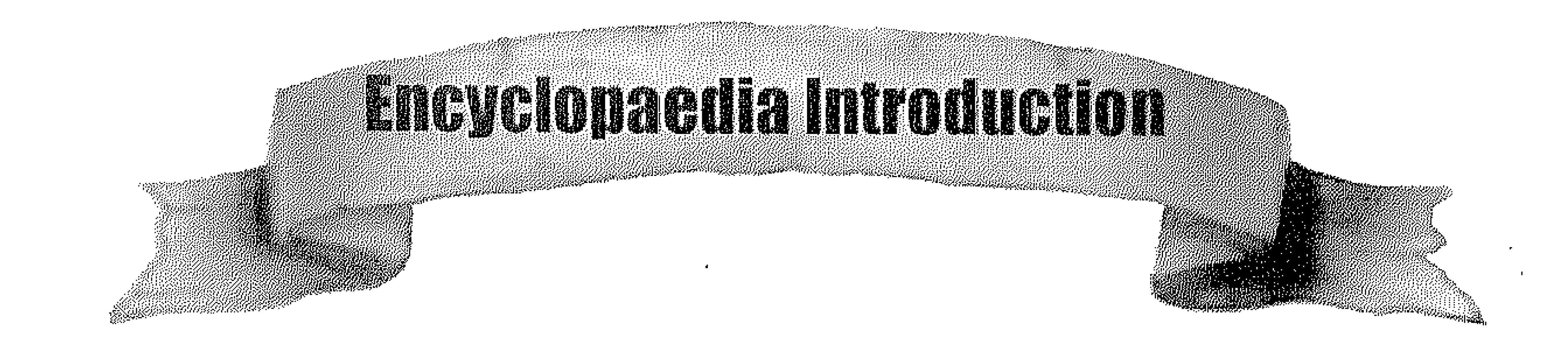

محتويات الكتاب


٧٢



This book casts more light on a glamorous page in East-West relations in the Middle Ages. It also depicts the life of two famous sovereigns that lived in the ninth Century A.D., the first one is Harun El- Rashid, the Abbasid Caliph in Baghdad, the second one is Charlemagne, the Emperor of Western Europe in Aachen " Aix - La - Chapelle ". Harun El- Rashid established strong ties with the Frankish Emperor. The two sovereigns exchanged diplomatic delegates and exotic gifts. These embassies reflect the prosperous and illuminated conditions in the Islamic East, as compared to the darkness and barbaric conditions of Frankish Europe in the ninth Century A.D.

Dr. Laila Abdel Gwaad



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Editing Directosrs: Chemist/ Amin Mohamed Al-Khodary
Engineer/ Atef Mohamed Al-Khodary

Committee Secretary: Abd El Halim Ibrahim Abd El-Halim

Designed by : Mohy El-Din Fathy El-Shaloudy

Correspondence & Communications:

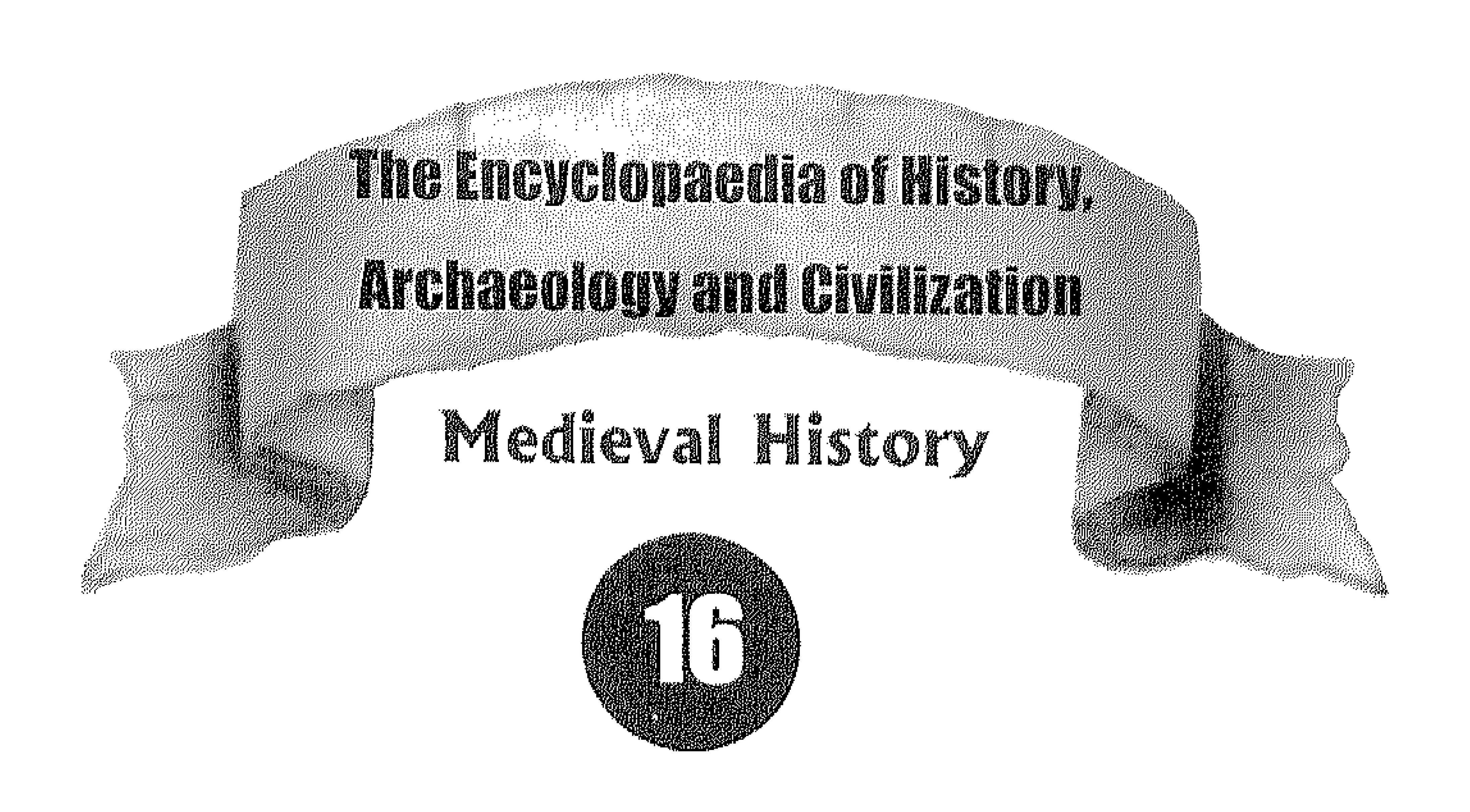
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



Harun El Rashid and Charlemagne



Dr. Laila Abdel Gwaad

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



Harun El Rashid and Charlemagne

Dr. Laila Abdel Gwaad

